الوعي الاجتماعي العربي والغزو الثقافي

محمد سعيد مضيه ـ الأردن ـ

١ ـ الوظيفة الاجتماعية للثقافة

يندب البعض الوعي الاجتماعي العربي بإحساس الفجيعة والقنوط.. ويقرّع هذا البعض العنصر العربي على أنه مرادف للجهل والغباوة، فتخلف وعيه حالة عقم أو خصلة ملازمة طبيعيّة، وفقاً لهذه النظرة التي تروج مواد الحرب النفسية التي تشن ضد الجماهير العربية ضمن حملات الحروب العسكرية والاقتصادية بقصد الاستعباد المادي والروحي للجماهير العربية، هذا البعض، بدافع الغيرة أو بنوازع خبيثة، يردد المزاعم التبريرية لإستراتيجية الهيمنة الامبريالية، وتحويل المنطقة إلى مصالح استراتيجية أجنبية.

إن الوعي الاجتماعي حالة اجتماعية تاريخية مرتبطة بعوامل محلية وتخضع لحركة دائمة من التغير والتحول مع تغير العوامل المولدة لها. الوعي إجمالي الأفكار والآراء والمصالح والخصائص العاطفية والنفسية التي تعكس نمط الحياة اليومية وأسلوب المعيشة، وإذا ما لازم الوعي نصيب من التخلف أو الأوهام والأضاليل أو تردي الخصائص العاطفية فما ذلك إلا تشوه يعكس تشوه الهياكل الاقتصادية ـ الاجتماعية والسياسية والثقافية القائمة في ذلك المجتمع، التخلف أزمة وليس حالة دائمة أو مظهر عقم، حالة نفسية ذهنية تتكون تلقائياً وبصورة عفوية لدى الأفراد والطبقات تتجذر في البيئة الاجتماعية والطبيعية وتستنبتها هياكل اجتماعية تقرر نمط الحياة وأسلوب المعيشة. والنفسية الاجتماعية إجمالي النظرات والعادات والأحاسيس والخصائص الأخلاقية والعواطف والأوهام والأضاليل التي تنبتها في وعي الأفراد والطبقات ظروف الحياة والعمل المباشرة.

ومع أن أنماط الهياكل الاجتماعية تقرر جوهر النفسية الاجتماعية وإجمالي نظراتها العلمية والوهمية وقيمها ومعاييرها فإن هذه الأنماط تبعث من الماضي إرث القرون القديمة وتستلهم عناصر الثقافات الوافدة التي تجيب على الأسئلة والمشاكل التي تطرحها الحياة الاجتماعية، فمن الخطأ الحديث عن الاستيراد الثقافي أو فرض الثقافات، فأية ثقافة تملك جواز مرورها إلى أي مجتمع إذا تهيّأت القضايا الاجتماعية التي تستحثها وتمنحها المشروعية في ذلك المجتمع، ومع توفر شبكة الاتصالات الكونية وتعاظم قوتها بفضل منجزات التكنولوجيا الرفيعة تعاظم الطابع العالمي للثقافة.

فالثقافة لا تصدر، إنما تحتاج إلى نفسية اجتماعية تلتقطها وتربة اجتماعية تستنبتها وترسخ عناصرها في النفسية الاجتماعية. فالعلاقة بين النفسية الاجتماعية والثقافة تمضي في طريق ذي اتجاهين. الثقافة إذ تلتقطها النفسية الاجتماعية تفعل فيها، تغني طاقتها الروحية أو تفرغها، تفرخ فيها العناصر المعرفية والقيمية الرفيعة أو تدمر المثل والقيم والنظرات القائمة وتفقرها.

الثقافة تعبر عن مصلحة. وما من عنصر ثقافي يجد القبول الاجتماعي إلا وهو يعبر عن مصلحة. فلا وجود لحياد ثقافي، ولا وجود لفكر يهيم بالفضاء. وثقافة المتعة التي تخدر الوعي وتقدم صوراً فانتازية تزيف الحقيقة وتشوه الوعي إنما تستهدف تلهية الإنسان عن واقعه وشل دوره في الحياة الاجتماعية المتطورة للأمام، بإلهائه عن قضايا واقعه وعن مسؤولياته تجاه هذا الواقع. إن للثقافة وظيفتها الاجتماعية، وعلى أي شكل جاءت فرسالتها الاجتماعية جلية وواضحة.

يبدأ المنتج الثقافي بنظرة عن الإنسان وموقف من همومه وأشواقه وينتهي برسم مواقف للإنسان من همومه وأشواقه. فالثقافة طاقة حشد وتعبئة وتوجيه، تصوغ القيم والمثل والمعايير السلوكية المطابقة للنظرات الفلسفية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والفنية والأدبية وغيرها. والمنتج الثقافي أداة لصياغة وعي الإنسان وأداة الإنسان للسيطرة على واقعه والتحكم في بيئته، الثقافة أداة للحرية.

الإنتاج الثقافي الفني من أغنى أشكال الثقافة بالعناصر الثقافية. فالفنان يكثف الواقع ويختزله في صور فنية تستثير تعاطف المتلقي وتفاعله مع الأحداث وتقييماتها حسبما يوردها الفنان. فالفنان، إذ يورد الأحداث والظواهر ويقدم الإنسان من خلال علاقاته الاجتماعية إنما ينقلها بطريقة تقييمية. ومن خلال تفاعل المتلقي مع المنتج الثقافي تغذو تجربة الفنان جزءاً من تجربته الذاتية فتغتني بذلك تجربته المباشرة. يقول الناقد السينمائي الفرنسي مارسيل مارتين «كل فيلم يحققه لنا فنان لا بد وأن يتضمن محتوى تاريخياً إجتماعياً وسياسياً. إذ لا يمكن أن يوجد ثمة برج عاجي لا بالنسبة للناقد ولا للسينمائي. كل فيلم هو سياسي

بشكل ما وبدرجات معينة. إن وهم الفن غير الملتزم قد تبدد الآن وتلاشى».

والإعلام أيضاً نشاط ثقافي متميز وفعال اجتماعياً، وهو أيضاً نشاط ملتزم وموجه فكما ينعدم الحياد الثقافي ينعدم كذلك الحياد الإعلامي. إن ربط الحدث وأسلوب عرضه وطريقة إبرازه وكذلك تحليل الأخبار والتعليق عليها وتحديد أهميتها أمور تحمل الإثارة والتقييم المطابقين لتوجه إيديولوجي معين. فالإعلامي ينطلق من إيديولوجيا كي يروجها من خلال عرض الأخبار وصياغتها وتحليلها بغية ترك انطباع مرسوم والتحريض على موقف مطلوب. إن الأخبار وتحليلاتها والتعليق عليها تتحول إلى تجارب مباشرة للفرد وتعرض رؤية إيديولوجية لمسار الأحداث وطبيعة القوى الفاعلة محلياً وعلى الصعيد الدولي.

وشأن الإنتاج الفني والإعلامي تفعل بالوعي أيضاً العلوم الإنسانية والطبيعية التي تدخل ميدان الإنتاج الاجتماعي وتوجه الممارسة الاجتماعية المنتجة. إن علوم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والاقتصاد والتربية والفلسفة الخ ذات مفعول ثقافي موجه تسترشد بإيديولوجيا محددة وتخدم مصلحة اجتماعية ملموسة. ذلك أنها تستهدف غاية مرسومة في صياغة الوعي وإبراز المثل والقيم والمعايير. إنها تقدم نظرة إلى الكون والحياة.

فالنشاط الثقافي ذو رسالة ومضمون. ومضمونه إما أن يكون إنسانياً يعمق خبرة الإنسان ببيئته الطبيعية والاجتماعية ويعزز سيطرته عليها عن طريق معرفة قوانين حركتها. وإما أن تغرب الثقافة الإنسان عن واقعه وقضاياه وتضعه في تضاد مع مصالحه وترسخ في نفسيته القيم والمعايير والمثل الهابطة التي تحيل الإنسان إلى فرد يدور في فلك ذاتيته وأوهامه.

الثقافة والحرية

تستعبد الضرورة الإنسان إذا جهلها أو تجاهلها. وبالعكس يتحكم الإنسان بالضرورة إذا أدركها أو امتلك أدوات ترويضها، فالمعرفة أداة للسيطرة على البيئة ـ أداة للحرية، وتقاس قدرة الإنسان على التحكم بالبيئة بمقدرته على التصرف وفق ضروراتها بعيداً عن تأثير نزواته وانفعالاته. وعندما تندمج العواطف بالعقل فإن كل طرف يغني الآخر ويزيد إخصابه. فالحرية تعني أيضاً تحكماً بالانفعالات والنزوات وكبح لجماحها. والبون شاسع بين الحرية والتسيب. الحرية معرفة للضرورة وامتلاك لأدوات السيطرة عليها والسيطرة على الذات ونوازعها.

غير أن ثقافة الغرب لا تعترف من الحرية إلا بحرية تدفق المعلومات ولا تعير اعتباراً لمضمون المعلومات ونصيب الصدق والزيف فيها. فحرية تدفق المعلومات هو البقرة المقدسة في ثقافة الامبريالية. وقد نقمت الولايات المتحدة على منظمة اليونسكو لأنها أقرت مشروع نظام إعلامي دولي جديد يحد من احتكار أجهزة الثقافة الغربية في توزيع وترويج منتجاتها، وتنتقد مركزية ثقافة الغرب وإنحيازها الظاهر ضد شعوب البلدان النامية وقضاياها. ولهذا السبب شنت الولايات المتحدة حربها ضد اليونسكو ثم انسحبت منها كي تمارس الضغوط المالية والمعنوية ضدها.

إن التركيز على أسلوب تدفق المعلومات دون المضمون يستهدف تغييب المضمون وإسقاط أهميته والتستر على رسالته الاجتماعية. فالثقافة بمضمونها الإنساني هي الوجه الآخر للحرية، والفنان الذي يؤدي رسالة اجتماعية يلتزم بقضايا المجتمع وهموم إنسانه ومعاناته وأشواقه. والإنتاج الفني آنذاك يأتي نتاج تعبير حر عن تجربة الفنان ومعاناته ولا يتم بالإكراه. فهو انبجاس عفوي لتفاعلات تتم تحت الوعي يولدها إحساس مرهف وانعكاس داخلي لمعاناة وتجارب ذاتية والتزام اجتماعي ونظرة فلسفية إلى الكون والحياة. والإنتاج الفني بعكس جوهر الواقع، طبقة أم شريحة اجتماعية أم مجتمعاً بأكمله أو فترة تاريخية.

ولكن ما مدى صحة الادعاء بحرية تدفق الإنتاج الثقافي في أقطار الغرب؟ هل احتكار وسائل النشر الضخمة يسمح بصراع الآراء؟ وهل تقبل ثقافة الامبريالية صراع الآراء وتحاورها؟ وهل ما زالت قولة فولتير «قد أخالفك في الرأي ولكنني على استعداد للموت دفاعاً عن حقك في إبداء رأيك».. هل لا زالت معياراً ملزماً للحرية يحظى بالاحترام؟ هل حرية تدفق المعلومات معيار ملزم أو مقبول على أقل تقدير أم أن الحرية مجرد ديكور تجميل للعرض أو فاتنة تصحب الدعاية لسلعة ترطب شهية المتلقي؟ هل تستقيم الحرية مع قوانين التقادم الشائعة في بلدان الغرب ـ بلدان الديموقراطية ـ حيث تحفظ التقارير ونتائج التحقيقات في الأرشيف لمدد تتراوح بين ربع قرن وقرن كامل؟ وهل تستقيم الحرية مع نشاط أجهزة الاستخبارات وجرائمها القذرة التي تدبر في الخفاء، وهل تستقيم مع توالد الأجهزة والنشاطات السرية في الوزارات والدوائر والتي تضطلع بأدوار التخطيط والتنفيذ بمعزل عن الهيئات التشريعية؟ وهذه القوانين التي تحصن نشاطات الأجهزة السرية وتمنع الموظفين وحتى الصحفيين من نشر الوثائق الرسمية التي يقرر واضعوها أنها سرية؟ وهل أفلحت الحرية في استئصال ممارسات الفساد والفضائح وتحرير الجماهير من الجريمة والبطالة والفقر؟ وما مدى الحرية التي يتمتع بها المنتج الثقافي ضمن قبضة وسائل الترغيب والترهيب التي تمتلكها الهياكل العملاقة الاقتصادية والسياسية والثقافية؟

وأسئلة أخرى عديدة لا تتحرى الحقيقة خلف الأبواب الموصدة بإحكام وداخل الأقبية والدهاليز، بل هي تتأمل ديكور العرض أو الفاتنة التي تخطف الأبصار وتزوغ البصائر. الديكور ليس منسقاً ومنسجماً بلا شوهات. والفاتنة تفقد بريق سحرها بفعل الكدمات والخدوش التي تفشي الاكراه المستخدم معها وتطهرها ممرغة بوحل السياحة وتمارس معها الرذيلة. يتجلى زيف تلك الحرية وتشويهها من وقائع تحدث كل يوم وغدت ممارسات مألوفة ومعتادة، هذا غيض من فيضها.

ـ نشرت مجلة نيوزويك الأميركية بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٨٢ مقالة بعنوان (هل الأعمال السرية ضرورية أوردت فيه أن لوف، مراسل نيويورك تايمز، لم ينشر عام ١٩٥٣ ما توصل إليه من معلومات عن دور وكالة المخابرات المركزية الأميركية في الإطاحة بنظام مصدق ثم انفضحت الحكاية بطريقة من الطرق. وجاء أيضاً أن الرئيس الأميركي كينيدي (أقنع) مجلة التايم عام ١٩٦١ بأن قدراً مما علمت به المجلة من عملية خليج الخنازير المنوي تنفيذها يجب أن لا ينشر. وحجبت المجلة

قدراً كبيراً من الحكاية وجاء الغزو كارثة، وجاء في المقالة أيضاً، حتى هذه الأيام ستقمع وسائل الأعلام بصورة عامة أي قصة إذا كان نشرها يعرّض للخطر أرواحاً أو يفضح سراً لا يختلف اثنان إنه حيوي بالنسبة للمصلحة القومية. وبعض المراسلين والمحررين يقولون انهم سيوقفون نشر أي قصة إذا كان ما يتعلق بها من نشاط سري يروق في أعينهم باعتباره ضرورياً وحكيماً وأخلاقياً (وهذه تقييمات نسبية ذات مضمون إيديولوجي).

ـ حدد قانون وكالة المخابرات المركزية النشاط السري بأنه عملية أو نشاط صمم خصيصاً للتأثير على الحكومات الأجنبية والمنظمات والأشخاص أو الأحداث الأجنبية لمساندة السياسة الخارجية للولايات المتحدة. وهذا النشاط لا يجوز الكشف عنه أو فضحه ولو في زمن لاحق بموجب قانون أقره الكونغرس.

ـ أشار أنتوني لويس المعلق الأميركي بصحيفة نيويورك تايمز إلى مبرر الأمن القومي ذلك «النظام من الأوهام الذي يمسك بحياتنا يوماً بعد يوم، ولا يحتاج الرئيس إلا لرفع علمه كي يستطيع عمل أي شيء إيقاف أميركي عن الكلام أو منعه من السفر»... واستذكر لويس مقالة نشرها جيروم وايستر بمجلة بوستن غلوب وهو المستشار العلمي السابق للبيت الأبيض، شرح فيه كيف أن الرئيس إيزنهاور «إنفعل من عجزه عن مقاومة التأثيرات والضغوط المتساندة من جانب العسكريين والصناعة والكونغرس والصحفيين ومنظمات الجنود من أجل شراء المزيد من الأسلحة»، وعلق وايسنر على المنطق الداخلي للتسلح فقال ان الولايات المتحدة تخوض سباق تسلح مع ذاتها، وفي هذه العملية تكونت لديها ثقافة عسكرية ـ مجتمع يقبل سباق التسلح كنمط حياة.

ـ ويوضح مضمون الثقافة العسكرية هذا الناقد السينمائي الأميركي كابلان، وهو يعلق على أفلام الممثل السينمائي الأميركي الراحل جون واين فيقول «لقد غدا جون واين رمزاً للشوفينية الأميركية وعبادة القوة التي يجري الترويج لها من قبل قوى سياسية أميركية تمضي في درب شن جولة جديدة من سباق التسلح النووي وإحياء مناخ الحرب الباردة وهيستيريا العداء للسوفييت والشيوعية وتمجيد أسطورة الدولة العظمى».

ـ وفي إسرائيل يتجلى مضمون هذه الثقافة في ما كشفه الصحفي داني روبنشتاين في مقالة بصحيفة أنترناشيونال هيرالد تريبيون (عدد ١٧ تموز ١٩٨٥) بعنوان (الديموقراطية في إسرائيل نكتة سخيفة) قال فيه السؤال الأساس الذي يواجه إسرائيل اليوم هل نرغب التضحية بالديموقراطية من أجل الاحتفاظ بالمناطق؟ إن الاجماع القومي على التنديد بالحاخام كاهانا وتدريس قيم الديموقراطية يسمح لنا بتجنب القضية الأصعب هذه. فالحياة اليومية في إسرائيل تعلمنا العكس صحيحاً لما يعتبر قيماً ديموقراطية. فما شبيبتنا وهم يصدقون أن النضال القومي والارهاب والتمييز العرقي حقائق حياة. فكيف يمكن للمرء في ظل هذه الظروف أن يعلم الديموقراطية؟ بدون تغييرأساس العلاقات بين العرب واليهود ماذا نستطيع نحن الاسرائيليين توقعه غير المزيد من الارهاب والمنظمات السرية المتعصبة والمزيد من أمثال كاهانا؟ فالحملة لتدريس الديموقراطية في إسرائيل ليست أكثر من نكتة سخيفة.

ـ وبالمثل ماذا يتبقى من قيم الديمقراطية عند ينصب الجهد الإعلامي والثقافي والسياسي والدبلوماسي على التأثير سراً وعلناً على الحكومات الأجنبية والمنظمات والشخصيات الأجنبية لمساندة السياسة الخارجية للولايات المتحدة؟ في تقرير نشرته نيويورك تايمز وأعدّه ترفور فيشلوك حول معركة الاعلام في الولايات المتحدة قاد جيشي هيلمز السيناتور الرجعي حملة القوى اليمينية في الولايات للاستيلاء على شبكة تلفزيون سي أي أس من أجل وضع حد لما أسماه تحيزه الليبرالي. ولم تتوجه الحملة بدوافع الحرية ولكن ضد الحرية وبدوافع سياسية محضة. وقد إتهم هيلمز الاتجاه الليبرالي (ليبرالية على الطريقة الأميركية) بأنهم إن لم يكرهوا فضائل أميركا فإنهم بالتأكيد يزدرون المثل والمبادىء الأميركية». أما تيد تيرنر المغامر الذي وجد الفرصة مهيأة له للتحكم في إمبراطورية إعلامية فقد أرقه واجب وضع شبكات التلفزيون بأيدي «أناس يهتمون بالبلاد»، واحتدمت معركة ضارية استخدمت فيها مختلف أنواع الذخائر.

هكذا فاحتكار القوة المادية يغري أصحابه لاحتكار «الاهتمام بالبلاد» والاهتمام «بالمثل والمبادىء الأميركية»، إحتكار حق توجيه كل تهم الخيانة والتنكر للوطن لكل من يحيد بأدنى درجة عن خطهم السياسي الرجعي والمغرق في شوفينيته. وفي نفس التقرير أكد فيشلوك أن الدعوى التي أقامها الجنرال ويستمورلاند ضد شبكة التلفزيون سي بي أس مبعثها الحقد على الصحافة التي أسهمت بقسط في إدانة الحرب الفيتنامية. ولم يؤرق الجنرالات وقوى اليمين «القلق على شرف الجندي بل إعادة تقييم الجمهور للحرب في الخارج».

وجاء العدوان على غرينادا ضمن الحملة لإعادة الاعتبار للحروب العدوانية والتخلص من عرض فيتنام. ولإنجاز هذه المهمة اقتضي منع الصحفيين من مرافقة عمليات الغزو الأولى وتركوا يشكون هذه المرة من الجور على حقهم التاريخي.

ـ وتتسرب بالقطارة الحقائق المذهلة عن حادث الطائرة الكورية الجنوبية. ذلك الحدث الذي استغل في تأجيج حملة محمومة في كل بلدان العالم الرأسمالي للتنديد بالاتحاد السوفييتي. فقد تبين أن تسجيلات المراقبة الأميركية قد أتلفت رغم انتشار خبر تحطم الطائرة. وتنظر محكمة فيدرالية أميركية في دعوى أقامها ذوو الضحايا ضد الحكومتين الأميركية والكورية الجنوبية لأنها قصرتا عن القيام بواجبها في منع حدوث الكارثة. ذلك أن وسائل الاتصال المنتشرة في المنطقة من المحتم أنها عرفت بانحراف الطائرة وأنها تستطيع ولديها الوقت والإمكانيات لإبلاغ الإدارة الأميركية بذلك. وعرف أيضاً موضوع طائرة التجسس التي رافقت الطائرة المدنية حتى الحدود السوفيتية، وكان الرئيس الأميركي يعرف بالأمر عندما ظل يواصل حملاته وبخاصة إلقاء خطابه أمام الدورة ٣٨ للأمم المتحدة واستغلاله لشن حملة تشهير بذيئة ضد الاتحاد السوفييتي.

وانفضح أيضاً إخفاء اليابان لتسجيلات متابعة الطائرة الكورية في الأجواء السوفيتية وأنها رفضت المعلومات حول ارتفاعاتها وخط سيرها مما يؤكد أن الطيار كان يعرف موقعه ولم يضل أو يفقد السيطرة. فلماذا حجبت اليابان هذه المعلومات التي تنسف كل ادعاءات إدارة ريغان وتفوض مبررات حملتها وتضعها في قفص الاتهام؟

ـ ومن بريطانيا علق بيتر كيلنير المحرر السياسي بصحيفة نيوستيتسمان على فضيحة إغراق البارجة الأرجنتينية بيلغرانو وفق مبررات كاذبة فضح زيفها واستذكر حادثة فضيحة هارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا الأسبق أمام مجلس النواب في نوفمبر ١٩٧٨ بصدد «العمليات التي جرت في الظلام في عدد وزاراته وأفشلت قرارات خطر النفط في الستينات والسبعينات عن روديسيا وجنوب أفريقيا» وقال كيلنير «ان ذلك يسخر من كل ما قالته الحكومة البريطانية علناً. وفي كلا الحالتين ظهرت إلى الضوء معلومات مزعجة كان لها وقع حاسم على قرارات الحكومة.. من السيء أن يصل مكتب رئيس الحكومة في الظلام ومع ذلك كان حيوياً بالنسبة للمصالح الضيقة داخل الحكومة أن لا تعطل خططها».

ـ وتمارس المصالح الضيقة محاولات تعطيل القرارات والافساد وقمع الحرية في كل بلدان الرأسمال. فالرأسمال قوة قهر وكبت عاتية للحرية. وهو عامل فساد سياسي وتشويه ثقافي خطير. أما قضية وزير الاقتصاد الألماني الغربي الذي كان يتلقى الأموال من الشركات الخاصة لتمويل النشاط الحزبي مقابل عدم تعطيل خطط المصالح الخاصة على حد تعبير كيلز. وأمامنا التهم الموجهة لمستشار ألمانيا الغربية كول بتلقي المخصصات المنتظمة من شركة فليك مقابل خدمات أيضاً علاوة على أن المستشار مدين لمنصبه أيضاً لأموال شركة فليك.

وأمامنا مساعدات سي آي إيه للدول الديموقراطية في أوروبا الغربية «لدحر الشيوعية عن طريق تمويل الاشتراكيين والديموقراطيين الاشتراكيين والاتحادات النقابية...» وفي أوج نفوذها الذي استمرّ حتى منتصف السبعينات شنّت الوكالة آلاف البرامج السرية ومعظمها عمليات سياسية وثقافية ذات موازنات منتظمة...

هكذا يبدو الديكور مشروخاً ملوثاً بالقاذورات. وتشي ملامح الفاتنة بالتزييف والخداع فالحرية مبتذلة ومهانة. ولا يتبقى للثقافة في الغرب إلا أن تتعرى من ستر الحرية المهلهل وتظهر على حقيقتها موجهة لخدمة مصالح.

ورغم ابتذال الحرية وامتهانها في الغرب فإن هذا لا يعني أنها تتطفل على الثقافة الحقة، فالحرية عنصر أساسي في إنتاج الثقافة وترويجها، وهي جوهر وظيفة الثقافة الإنسانية. ان توجيه الثقافة أو الثقافة الموجهة لا يضعها في تناقض مع الحرية. فالتوجيه غير لئ الذراع وقمع الإرادة مثلما أن الحرية لا ترادف التسيّب والانفعالات من ضرورات البيئة. قد تولد الثقافة مزاجاً اجتماعياً وحاجات تطلعات (نفسية اجتماعية) تضع أفراد المجتمع في مهب النزوات فيفقدون حريتهم الاجتماعية وقد تصوغ نفسية تقيم تناسقاً بين العقلاني والضروري موضوعياً فتفتح قنوات تفاعل صحي بين العاطفة والعقل فتدمج الطرفين في إرادة متماسكة ثابتة تسترشد بضرورات منطق حركة الواقع.

أما الاحتكار وثقافته فهما اللذان ينتعشان في مناخ انعدام الحرية، مناخ القمع الديكتاتوري والارهاب الفاشي. فالاحتكار يتسلل إلى جميع مسام المجتمع البرجوازي الاقتصادية والسياسية والثقافية. وبحكم نزوعه إلى الهيمنة والالحاق فإنه يشجع في البلدان التابعة، كشرط للتبعية، هياكل اقتصادية وسياسية وثقافية تستنبت النفسية الاجتماعية المواتية لثقافته والتي تمنحها القبول والمشروعية.

فما تروجه ثقافة الامبريالية من غنى وثروة وقوة مادية وقدرة تكنولوجية لا يستهدف الإلهام بقوة مثالها بجعلنا أغنياء مترفين ومتقدمين تكنولوجياً وعلماً أقوياء مادياً. أنها تنشط لدينا ذهنية استهلاكية غير منتجة، مكملين لنظامها الاقتصادي ـ الاجتماعي في إطار التبعية، وتثنينا عن التطور والتنمية الاجتماعية المستقلة، أنها تنمي هياكل التبعية الاقتصادية للإمبريالية، جوهر الاستعمار الجديد وتنشط الثقافة الملائمة، ثقافة التعصب والعدمية القومية وتغييب طابع الامبريالية ومواقفها المعادية للشعوب وعدوانيتها الشرسة.

عندما قهرت منتجات الصناعة الرأسمالية حواجز العزلة القومية لشعوب الشرق ودمرت حصونها حملت معها ثقافة البرجوازية. وكانت آنذاك تحمل مثل الحرية والقضاء على أنظمة الاستبداد والتخلف. كانت مبادىء الثورة الفرنسية وقيم الكفاح ضد صوفية الكنيسة واستبداد الاقطاع، هي المهيمنة على النشاط الثقافي لأوروبا في القرن التاسع عشر، هكذا حملت البرجوازية نظرات المنورين الأوروبيين والفرنسيين، فولتير وروسو وديدرو وكوندورسيه وأضرابهم، ممن دافعوا عن قيم الحرية والديموقراطية ضد الاستبداد.

في العالم العربي الذي أخذ يستيقظ من السبات ويتحرك من أجل الحرية والنضال ضد الاستبداد التركي العثماني وهيمنة الاقطاع، وهو ما تجلى في الثورات في مختلف أقطار المشرق العربي، المناوئة للاقطاع حتى قبل حملة نابليون على مصر. إن النزوع إلى الحرية والعلم قد لفت أنظار المنورين العرب في القرن التاسع عشر إلى عناصر الثقافة البرجوازية الوافدة التي وجدت القبول والمشروعية في المجتمعات المنطلقة إلى نور المعرفة والحرية. وبالنتيجة برز في الثقافة العربية مفهوم الشعب والجماهير ومقولات الشعب مصدر السلطات ومسؤولية السلطة التنفيذية أمام الشعب. جاء كتاب (طبائع الاستبداد) للكواكبي مستلهماً لكتاب المفكر التنويري الايطالي، ألفييري، الذي ترجمه إلى التركية المنور التركي جودت. وترجمت إلى العربية رواية جان جاك روسو (اميل) وكتابه (العقد الاجتماعي) ونشأت الصحافة الوطنية ذات الرسالة الاجتماعية التي تصدت للاستبداد والتجهيل ونادت بسلاح المعرفة ضد الجهد وبالدستور ضد الاستبداد وتشكلت الجمعيات الثقافية التنويرية ودعوات التسامح الديني والارتفاع فوق العصبيات القبلية والطائفية تجسيداً لتجمع الشعب الذي يسمو على الطائفية والفروقات الاقتصادية، وحملت الثقافة التنويرية مفهوماً عن الإنسان كائناً يتمتع بالعقل وبالإرادة. وقد تأثر بهذه الأفكار أيضاً كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في تفسيرهما التنويري للإسلام فأدخلا مبدأ العقلانية في تفسير نصوص القرآن. فقد حمل جمال الدين الأفغاني على المفهوم الاقطاعي للإسلام الذي تجاسر على حقيقة الإسلام وسطا على كل مضمون عقلاني إنساني فيه ولم يبق منه إلا على وجوب الطاعة لأولي الأمر، وكافح المنورون القدرية وأكدوا حرية الإنسان في تقرير مصيره واختيار قدره ودعوا لتحرير أراضي المسلمين من السيطرة الكولونيالية الأجنبية. كما دعوا إلى إحياء اللغة العربية وآدابها القومية.

غير أن المنورين العرب والساسة القوميين الذين خلفوهم عجزوا

عن اختراق الأوضاع الاقتصادية وتشابك علاقاتها الاجتماعية وتناقضاتها الذاتية. فوقفوا بالنتيجة محيّرين أمام تناقض مثل الغرب مع ممارساته السياسية في أقطار الشرق، واعتصموا بالتفسير الأخلاقي، تعاملوا مع الواقع عند مستوى الظاهر منه، فاكتفوا بتوجيه النقد وظلوا يتوجهون بالمناشدة إلى قيم الغرب الليبرالية، لم يدركوا في تلك المرحلة ان الغرب قد أدار الظهر لهذه القيم وأن مرحلة الامبريالية غير مرحلة رأسمالية المنافسة الحرة في ميادين الثقافة والسياسة. لم يفطنوا إلى أن تحالف الامبريالية واحتكاراتها الاقتصادية والثقافية من الاستبداد والتخلف والتعصب الطائفي والخرافات والصوفية وامتهان إنسانية الإنسان.. إن ذلك كله قد غدا سمة أساسية في ثقافة الامبريالية. إن الطابع الاحتكاري لأجهزة الاتصال الجماهيري قد فرض نفسه على منتجها الثقافي. ولم يعد صراع الآراء وحوارها قيمة ثقافية من قيم الامبريالية الثقافية، فقد نفذت كل نزعة تقدمية من هذه الثقافة وغدت مهمتها الأساسية المقاومة، مقاومة كل فكر تقدمي وإنساني وديموقراطي.

٢ ـ ثقافة التبرير

إن الثقافة العسكرية التي أشار إليها جيروم وايسنر منتج روحي لخدمة مصالح التجمع الصناعي ـ الحربي الذي حذر الرئيس الأميركي إيزنهاور من إزدياد قدرته المادية ونفوذه السياسي والثقافي. ذلك النفوذ الذي لا يمكن المراهنة عليه، فالتجمع حسب تعبير إيزنهاور مؤسسة عسكرية هائلة وصناعة سلاح ضخمة، كانت حديثة آنذاك في تجربة الولايات المتحدة كما يقول أنتوني لويس بصحيفة نيويورك تايمز والذي يعلق على ذلك قائلاً «منذ ذلك الحين، رحنا نصنع بصورة لا تنتهي أسلحة أخطر بألوف المرات ونحن أقل أمناً مما كنا، فالضغوط التي أقلقت إيزنهاور نمت بصورة أقوى بكثير ولدينا رئيس يعتقد أن رفض صنع أي سلاح قد يبلغ حد نزع التسلح من جانب واحد نبدو وكأننا وقعنا في مصيدة نظام من الأوهام يمسك بحياتنا يوماً بعد يوم فمتى يدعونا إيزنهاور آخر إلى التعقل؟».

أجل نظام من الأوهام لتبرير صنع المزيد من الأسلحة وتبرير تسويقها وإيجاد أسواق دائمة لها من الحروب المصدرة والمفتعلة في الخارج. وفي نفس المقال يتحدث لويس عن مبرر الأمن القومي. إذ تشير الحالات التي حدثت مؤخراً أن الرئيس لا يحتاج إلا لرفع علم الأمن القومي ويستطيع عمل أي شيء، إيقاف أميركي عن الكلام أو منعه من السفر أياً كان. ويتساءل: «هل المحكمة العليا تتمعن بأي قدر فيما يعمله الرؤساء باسم الأمن القومي؟».

الواقع يجيب أن القضاء الأميركي حتى بأرفع مستوياته متواطىء مع ثقافة التبرير أو خاضع لإرهابها فلا يستطيع أن يتقدم لإيقاف الجرائم المقترفة باسم الأمن القومي.

أكد تشارليز ديك، مدير دائرة الاتصالات الدولية الأميركية ـ المؤسسة التي تروج الثقافة الأميركية في العالم، أمام اللجنة الفرعية للعمليات الخارجية التابعة للجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب الأميركي في ٧ آذار ١٩٨٢ أن دائرته «أهم العناصر التي لا يستغنى عنها في جهاز الأمن القومي». فرغم نفقاتها الهائلة على نشاطات إذاعات صوت أميركا وأوروبا الحرة وراديو الحرية والاذاعات الموجهة إلى كوبا وأفغانستان والبلدان الأخرى، فإنها «تغني عن استخدام قاذفات القنابل» حسب تعبير صحيفة واشنطن بوست. فدائرة الاتصالات الدولية الأميركية مؤسسة ثقافية عسكرية موازية للمؤسسة الصناعية العسكرية خبث الدعاية هي مواصلة للحرب بوسيلة أخرى حسب تعبير كلارزيفيتس.

الإنتاج الثقافي الأميركي مسكون بهاجس الترويج لسياسة القوة والسوبرماتية الأميركية وتبرير حق القوة في الاستحواذ والهيمنة.. إنها ثقافة تبرير السياسة العدوانية بهدف تحقيق الهيمنة على العالم، سياسة المصالح الاستراتيجية الحيوية لتبرير التدخل في الحياة الداخلية للبلدان الأجنبية ومنع تطورها الوطني المستقل باسم الدفاع عن أمن الولايات المتحدة وضمان مصالحها الاستراتيجية. فمكان شعوب البلدان الأخرى، ضمن هذه الاستراتيجية، هو العبودية المادية والروحية للولايات المتحدة. في الفلسفات السائدة: البراغماتية والداروينية والاجتماعية والوضعي المنطقية تمجيد للقوة وتبرير لحقها في الهيمنة، وتهيئة النفوس لتقبل عهد الهيمنة الأميركية على العالم والاذعان لهذا المصير. وضمن هذا النهج تجري برمجة المسلسلات التلفزيونية وسيناريوهات الأحداث الدولية لعرض العالم بطابع موزاييكي دون أي منطق يربط بين هذه الأحداث. فالعالم، وفقاً لمنطق الثقافة في الغرب، مدينة أشبه بنيويورك تشغل الولايات المتحدة واجهتها الحضارية، وتضم غيتوات معزولة هي بلدان العالم الثالث التي تعيش فيما بينها ومع الواجهة حالة حرب وعداء مستحكمة تزداد وتتعمق. دور أميركا فيها رائدة في نشر الحضارة المعاصرة بينما العالم النامي يعيش المأساة التي لا بد منها، ليس لها من مخرج ولا بد من متابعة الواقع كما هو عليه.

تبلورت النظرية الإعلامية والثقافية للإمبريالية على يد بريجنسكي، مستشار الأمن القومي للرئيس الأميركي كارتر ورئيس اللجنة الثلاثية العالمية، والتي تضم أصحاب الرساميل من الولايات المتحدة واليابان وأوروبا الغربية. وقد أطلق بريجينسكي على نظريته هذه اسم التيكنوترونية وهي مفهوم يتألف من كلمتين التيكنولوجيا والأليكترونيكس. وهذا تعبير، حسب زعم بريجنسكي، عن مرحلة من الرقي الحضاري لم يبلغها سوى الولايات المتحدة. وأضفت هذه المرحلة سمتها الأساس على السياسة والثقافة في العالم أجمع: هيمنة الولايات المتحدة والمصير المأساوي للبلدان النامية.

وواجب الثقافة، وفق هذه النظرية، إنتقاء أحداث العالم سيناريوهات لمسرحية تعرض على مسرح الحياة، تقدم العالم وفق ما تخيله المعلق الأميركي أنتوني لويس، ضمن (نظام من الأوهام) الذي لا يربطه منطق، وتستهدف هذه الثقافة الإنسان بالطبع ولكن لكي تجرده من مقومات إنسانيته ـ الذاكرة والإرادة. فمن قيم هذه الثقافة وقيمتها الأساس، هي الاستهلاك. ونفوذ الإنسان ومكانته الاجتماعية تتجدد بما يستهلك وليس بما ينتج. وهكذا فإن حياة الإنسان الفرد لهاث لا يتوقف خلف الاستهلاك.

كما وتنطلق هذه الثقافة من زعم ينفي وينكر إمكانية تكوين الرأي العام نظراً لعدم قدرة الجماهير على إدراك مغزى الأحداث أو حتى تذكرها. فاليوم تركز الأضواء على فلسطين كي تطمسها غداً الأنباء

عن تشيلي أو الصراعات الطائفية في الهند وهكذا عبر مسلسل الأحداث الممسرحة التي تبدأ بأكذوبة مختلفة أو تقرير مفبرك لوكالة المخابرات المركزية الأميركية، وشأن المسلسلات التلفزيونية يتم إنتقاء الأحداث وفق السيناريو المرسوم دون أن تقدم الوقائع وفقاً لقيمتها الموضوعية.

ففي حرب فيتنام بدأ مسلسل التصعيد الدرامي بحادثة خليج تونكن التي تأكد فيما بعد أن إدارة جونسون في حينه هي التي دبرتها كي يبدأ القصف الشديد والحرب الكيماوية التي شملت كل أجزاء الهند الصينية. إلا أن الأحداث أفلت زمامها من أيدي المخرج الأميركي فمضت في الاتجاه المضاد.

وفي الشرق الأوسط بدأ المسلسل بتقرير نشرته السي آي إيه حول قرب نضوب النفط السوفييتي الأمر الذي سيضطر الاتحاد السوفييتي إلى إحتلال مناطق النفط في الشرق الأوسط. وطفق «نظم الأوهام» يوسع السيناريو = الدفاع عن مناطق النفط الحيوية، دور أميركا في إيصال مصادر الطاقة الحيوية إلى العالم «الحر»، تشكيل قوةالتدخل السريع، البحث عن مناطق تسهيلات لخدمة قوات التدخل السريع، تواجد الأساطيل وحاملات الطائرات والصواريخ حول المنطقة ثم التعاون الاستراتيجي الأميركي الاسرائيلي وأخيراً عقيدة الاجماع الاستراتيجي داخل المنطقة.

تتكامل هذه السيناريوهات التبريرية بسيناريوهات تجري داخل الولايات المتحدة تستوحي سياسة (المدينة العالمية) بقصد تبديد آثار الانفراج الدولي ومحو عقدة فيتنام والعود إلى ثقافة الحرب الباردة ـ الأمن القومي.

الاتحاد السوفييتي يدبر لعدوان ضد العالم الحر، منظمات وهيئات تنشأ للوقاية من الخطر تحت يافطة لجان الخطر الدائم، أينما يتوجه القارىء أو المتلقي في الصحف ونشرات الاذاعات وأخبار المساء في التلفزيون وعلى جميع القنوات يصدم المتلقي حديث أو حوار أو مقالة أو ندوة تنبه من الخطر الداهم. فأين الحقيقة وأين الوهم؟ قناعات المتلقي أم ذلك الزخم الإعلامي الذي يتدفق من حوله؟

وتلصق تهمة التخريب الشيوعي والعدوان السوفييتي بكل حركة تحررية تندلع إحتجاجاً على الفقر والديكتاتورية والظلم الاجتماعي في لبنان أو نيكاراغوا أو غرينادا أو داخل الولايات المتحدة. جهود إعلامية وثقافية تنتجها مطابخ الإنتاج الثقافي والدعائي يوجهها مركز واحد وفق استراتيجية وتكتيك الأمن القومي.

أثناء الغزو الاسرائيلي للبنان كانت شبكات التلفزيون الأميركية على جميع قنواتها تعرض مسلسلات حول الاضطهادات التي نزلت باليهود على مدى التاريخ، والهدف واضح ـ تبرير الغزو وما رافقه من جرائم الإبادة والأرض المحروقة.

فيلم (التلفون) يحرك جميع المصائب الرهيبة داخل أميركا بإصبع روسي يغمر الولايات المتحدة بالجواسيس المتعطشين لتدمير الولايات المتحدة وتقويضها من الداخل.

وفي فيلم (الفجر الأحمر) الروس الذين تتلبسهم الشياطين مع الكوبيين والنيكاراغويين ينزلون قواتهم على الأراضي الأميركية كي يقتلوا الأميركيين بلا تمييز.

في المدارس تنظم وحدات التدريب الدنيا لضباط الاحتياط من تلامذة المدارس في سن الرابعة عشرة وتلقى على التلاميذ دروس في الماركسية وأطماع الروس وحركات التحرر في العالم وبلدان العالم الثالث تهيىء الصبيان الصغار للانخراط بحماس في العمليات العسكرية القادمة. وفي عام ١٩٨٤ كان هناك أكثر من ١٦٠٠ وحدة تضم كل منها ٣٠ ـ ١٥٠ يافعاً.

وتمد منظمة الشبان الأميركيين من أجل الحرية فروعها في أنحاء البلاد تعود الشباب على أسلوب التفكير الفردي ونزعة المشروع الخاص ويشرّبون بوجهة النظر المناهضة للاشتراكية ـ «عدو المبادرة الفردية».

عملية كاملة من غسيل الدماغ وتثبيت الأوهام في النفسية الاجتماعية ولا يبقى ثمة فارق يميز الوهم عن الحقيقة، فعندما يتدفق الطوفان الثقافي في قوالب وسيناريوهات عبر شتى أجهزة الاتصال فإن ذلك يخلق واقعاً مفبركاً ووعياً زائفاً يطمس الواقع الموضوعي ويغيبه بشكل تام.

وعندما تشن عبر الأثير عشرات الاذاعات وشبكات التلفزيون حرباً سيكولوجية باسم «حرية تدفق المعلومات» وتقتحم حدود البلدان بلا تصريح أو أوراق اعتماد فإنها تشكل قوة احتكارية في نقل المنتج الثقافي المبرمج: ألف ساعة أسبوعياً يبثها صوت أميركا زيادة على ١٠٠ ساعة تبثها إذاعة أوروبا الغربية الحرة وراديو الحرية. والمرافق الاذاعية للبنتاغون تذيع ٧٨ ساعة كل أسبوع، إضافة إلى عشرات المحطات الاذاعية الخاصة التي تبث عبر الأثير منتجات المطابخ الثقافية. وترصد آلاف ملايين الدولارات لتحديث محطات الاذاعة وتشييد مراكز التغطية والارسال الجديدة وتيسير بل نقل البرامج التلفزيونية مباشرة عبر الأقمار الصناعية.

يتم كل ذلك بموجب برنامج (الثقافة في خدمة الأمن القومي) الأمن الذي يستبيح قيم الاستقلال الوطني وحق تقرير المصير لكل الشعوب، حق التحكم بالثروات القومية. وتنتهك الفقرة الرابعة من المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة باسم المصالح الاستراتيجية الأميركية. هذا هو الغطاء الثقافي لاستراتيجية أميركا الكونية الذي يضع الحضارة والتقدم والقوة في جانب الولايات المتحدة ويمنحها حق الهيمنة في هذه المدينة العالمية على شعوب البلدان النامية التي يعتبر نصيبها هو التخلف والروحانية الغيبية والمصير المأساوي وفقاً لنظرية بريجنسكي.

ثقافة التلفزيون

«عالم التلفزيون هو عالم الخداع» هذا ما قاله شيخ الصحفيين الأميركيين جيمز ريستون (أنترناشونال هيرالدتريبيون ٦ نوفمبر ١٩٨٤). إنه عالم خداع عندما ينتقي من الواقع أحداثاً لا تعبر عن جوهره والاتجاه الرئيسي في تطوراته. أما عندما يعكس الواقع على حقيقته وينقل الحقيقة ضمن علاقاتها الجغرافية والاجتماعية والتاريخية فإنه يحمل طاقة محولة دينامية، إذن فتقييم ريستون للتلفزيون يستند إلى ملاحظاته لنشاط التلفزيون الأميركي ومنتجه الثقافي، ويقول ريستون ان ريغان «لو ترك له الخيار في أن يقرر أن يكون له حكومة بدون صحف أو صحفاً بدون حكومة فلن يتردد في اختيار التلفزيون دوماً.

بعض كتاب الافتتاحيات والأعمدة في الصحف ومعظم المراسلين في واشنطن كانوا على إطلاع على خططه المراوغة وابتهاجه السهل وإمساكه غير الثابت بالحقائق لم يترددوا في الاشارة إلى نقائصه الشخصية والمالية أو يندوا بتنظيره المتقلب ويهزأوا من أساليبه الملتوية والمعوجة إلا أنه كان لديه المصورون والكميرات التلفزيونية الخاصة بالحلفاء ممن برهنوا على أن الصورة الواحدة تظهر في أخبار المساء تساوي قيمتها مليون صوت».

أطلق ريستون على هذا المنهج اسم (سياسة التلفزيون) ويقول: هل يشكل عمر يغان مشكلة إنتخابية؟ أمام الكاميرات راح يخبط بقدميه كلاعب جمنازيوم... يقال أن الشعب يحصل على الحكومة التي يستحقها وهو صحيح فعلاً أن ما يراه الشعب الأميركي ويسمعه من وعود بالسلم والرفاه هي بالضبط ما لم يحصل عليه في السنوات الأربع القادمة ذلك أن عالم التلفزيون هو عالم الخداع، هكذا يفسر ريغان فكره، وهكذا يتبين دور التلفزيون في استراتيجية الأمن القومي البريجنسكية.

تتعامل الصورة التلفزيونية وخاصة في المجال الإعلامي مع الظاهر والسطحي والمؤقت ويخطف تأثيرها الأبصار ولكنه يزوغ البصيرة، فتأثيرها انطباعي لا يسمح بالنظرة النقدية وعندما تبرمج الصور في سيناريو دعائي معد سلفاً فإنها تشكل منظومة أوهام لواقع مزيف خيالي، هنا تندمج المسلسلات التلفزيونية التمثيلية بالمسلسلات الإعلامية دون أن تترك للمتلقي وقتاً للتأمل وأحكام التفكير.

الكلمة أقرب إلى العقل وأوقع في الوجدان من الصورة. فارتباط العقل بالكلمة واليد يحكي قصة تطور الحضارة الإنسانية وتطور التاريخ البشري ذلك أن الكلمة مفاهيم وأحكام واستنتاجات منطقية هي نتاج نشاط الدماغ التجريدي لإحساسات الواقع المنعكس عن طريق الحواس. أما الصورة التلفزيونية فتظل مجرد إنعكاس يفتقر إلى التأمل إنعكاس قد يكون مثيراً ومتوتراً فكيف يكون الأمر عندما تأتي الصورة انعكاساً زائفاً للواقع مفصولاً عن علاقته الاجتماعية والتاريخية؟

جثة مغدور تصدم المشاهد فجأة بعملية اغتيال، عصابة سطو، اختطاف، شقاوة... مشاهد لا ترتبط بواقع إجتماعي ملموس إشارة إلى طابع الشر المتأصل في الإنسان. تلك هي النظرة البرجوازية إلى الإنسان شرير بطبعه وعدواني. وتتوالى أفلام الجريمة والارهاب والعنف يخرج المنتصر فيها الداهية والمراوغ ذلك البطل الذي يستثير عواطف الجمهور. في مسلسلات دالاس، على سبيل المثال، ينتزع البطل جي آر إعجاب الملايين في أنحاء العالم الرأسمالي لأنه مراوغ وقاتل متوحش. في ذلك الفيلم يجري التعريض بأصحاب النفط (إشارة إلى العرب كما تقول الدراسات التحليلية).

المسلسلات التمثيلية تكمل السياسة التمثيلية على المسرح التيكنوتروني لكي تكرس عبادة القوة وتحكم على الأجناس الأخرى الزنوج الهنود الحمر، والشرقيين بقدر الهزيمة والمأساة بينما المنتصر في الخاتمة هو الأميركي.

في الأفلام التلفزيونية يختفي بعدا الزمان والمكان، التاريخي والاجتماعي، للحدث والصورة الفنية، وتتوارد مجريات المسلسلات منظومات وهمية أو مشاهد كي تدور الحياة بدون منطق. بينما نضالات الشعوب من أجل التقدم والتحرر الاجتماعي فهي من المحرمات المحظورة على المنتج الثقافي التيكنوتروني ومعها كذلك الأشواق والطموحات الموجهة لشعوب العالم الثالث للتخلص من إرث التخلف وبناء حياتها الجديدة والدفاع عن السلم وإنجازات التقدم الاجتماعي للشعوب الحرة.

وتدور الأحداث أمام المتفرج دون أن يتحرك من مكانه، إنه متلق سلبي ولا يتلقى مثالاً ملهماً لكفاح أقرانه من أجل السعادة. وعندما يشكل عجز الإنسان أمام القدر أو المصير المأساوي سيناريو الأحداث الدولية فإن المنتج الثقافي من ثم يأتي دعوة إلى السلبية والانطواء المحبط يضاف لذلك أن العين البشرية تتحول إلى مجرد أداة لمس حيث يعمى الإنسان عن تمييز الأشياء لأنها لا تتفق مع مخزون ذاكرته من تجاربه الاجتماعية. فكل ما يتلقاه فانتازيا تملأه بالانبهار. وتزداد خطورة هذا التأثير من برامج الدعاية للسلع المادية المنتجة في بلاد الغرب، فهذه البرامج لا تستهدف الترويج لبضاعة بقدر ما تستهدف الترويج لقيم استهلاكية تعوض المرء ما يشعر بالافتقار إليه من هيبة ومكانة ـ صورة لجنتلمان أو سيدة مجتمع غربي يستخدم أدوات منزلية أو يتزين بحلية أو منتج أوروبي أو أميركي صورة لحسناء فاتنة تضفي بهجة على منتج تفتح شهية المتلقي ولكنها تطرح له مثالاً زائفاً للقدوة الاجتماعية. فعالم الشرق عالم تخلف وهبوط ومن يريد أن يطفو على سطح المجتمع ما عليه سوى التشبه بمثال المجتمعات الغربية. ويكف الاستهلاك آنئذ عن تلبية حاجات فسيولوجية وروحية طبيعية ليتحول إلى عتبة وجاهة وهيبة اجتماعيين. هنا يضمحل عنصر الإرادة في إنسانية الفرد ويتراجع أمام الشهوات المستنفرة التي تقود الإنسان وتحدد له مثله الاجتماعية. إن مصدر القيمة الاجتماعية للفرد لم يعد العمل المنتج أو الخدمة الاجتماعية بل الاستهلاك ونمط الحياة أي ما يستهلكه من منتجات الصناعة الغربية.

هنا يندمج الإنسان الصناعي مع الإنتاج الثقافي وتنفضح أسرار العلاقة فيما بينهما كما تتعرى العلاقة بين مروجي السلع الأجنبية المادية والروحية.

هكذا تغزو التبريرية والاستهلاكية واللاتاريخية واللاإجتماعية كنظرات وقيم ومثل مجتمعات البلدان النامية ومنها البلدان العربية مع الصورة التلفزيونية؛ حيث تنزلق على الذهن راسمة نمطاً للحياة يؤثر في النفسية الاجتماعية ويخلفها في لهاث دائم خلف الزيف والأوهام من إمبريالية ثقافية تستثمر على الطريقة البرجوازية الجوانب السلبية من الاخراج والبث التلفزيونيين كي تقدم عالماً من الفنتازيا والغربة وهو عالم يبرر الجريمة وغربة الأفراد في العالم الرأسمالي نتيجة غربتهم عن نتائج عملهم الاجتماعي وتدهور أوضاعهم الاجتماعي نتيجة البطالة مع تقدم العلم والتكنولوجيا ونتيجة لتدهور الأوضاع الاجتماعية مع سباق التسلح. ومن خلال ذلك كله تصاغ مواقف الأفراد إذعاناً للواقع واستسلاماً له وتكيفاً مع المثل والقيم والمعايير السلوكية التي يفرزها: قيم الوصولية والكسب السريع والفهلوة وعبادة القوة أو أن تلقيه في مهب التعصب الشوفيني القومي أو الديني. تلك هي الثقافة التي تجدب العلاقات الإنسانية وتصحر الروح إذ تفرغها من مضمونها الإنساني

والروحي النبيل وتقوض الفضائل بقوة الشهوة والجشع والتكالب ودفع الآخرين بالأكتاف حتى يمكن الانطلاق من وسط الزحام.

* * *

خلاصة لما تقدم فالثقافة الوافدة عبر قنوات الاتصال الاحتكارية تبرر مجمل الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي المتكون تاريخياً في العالم الرأسمالي كما تبرر تقسيم العمل القائم محلياً وعلى النطاق الدولي داخل «المدينة العالمية» حسب المفهوم البريجنسكي، وتضفي على تقسيم المواقع والعمل طابع المصير القدري والديمومة، أنها ثقافة تميز بين العروق والأجناس في كل بلد وتبرر الاستراتيجية الامبريالية تجاه شعوب العالم ونزوعها إلى العدوان والهيمنة والاستئثار بثروات الشعوب ولا ترى لشعوب العالم الثالث غير مصير المأساة والمراوحة في حلقة التخلف.

إنها ثقافة تغيب الامبريالية وعلاقاتها وممارساتها المعبرة عن مصالح الاحتكارات فوق القومية مثلما تغيب الصهيونية وتطمس جذرها الاجتماعي وطابع علاقتها العضوية بالامبريالية بحكم الوحدة العضوية لحاملها الاجتماعي.. إن الزعم بأن السوبرمان الأميركي الذي يتعامل مع العالم كعملاق أسطوري يتحول إلى حمل وديع أمام الصهيونية في عقر داره، زعم لا يستقيم مع منطق أو واقع.

وكذلك تغيب الإمبريالية الثقافية الأصول الاجتماعية والتاريخية للشرور والمشاكل الاجتماعية التي تؤرق الإنسان وتثقل كاهله.

وهي ثقافة تقطر منتجها تسلية للجماهير ومتعة لها في لحظة استرخاء وغيبوبة عن همومها الأرضية، تمجّد الإنسان الاسمي على حساب الجماهير وتمنح دور محرك للأحداث لأفراد النخبة الذين يلوحون بالاصبع للجماهير، فتندفع خلفهم بمزاج القطيع مبهورة فاقدة الإرادة.

ومردود هذه الثقافة في عالمنا العربي دعوة إلى الاذعان لمصير التبعية والتخلف وتصحّر العلاقات الإنسانية وانجرافاً وراء الاستهلاك دون الإنتاج وإغواء بقيمه ومثله ونظراته وحثاً على التغرب عن الواقع والمعاناة وعلى الانغماس في الأنانية والوصولية والأساليب الملتوية.

وهذه القيم التي تجدب الروح وتولد نوازع العدمية القومية يرتد صداها تعصباً وإنكفاء إلى قيم العصور الوسطى وتمترسا خلفاً أسوار العزلة الثقافية التي لم تعد تحصن أحداً ضد عالمية الثقافة وتدفقها عبر وسائل الاتصال المنظورة. إن التعصب وانعدام التسامح والشوفينية والانغماس بالصوفية القدرية يرتبط بقاسم مشترك مع ذهنية الاستهلاك تتمثل في النظرات اللاتاريخية واللاإجتماعية والغربة عن الواقع وقضاياه المتكونة تاريخياً وإغفال روح العصر.

وبالنظر لكون الثقافة لا تفرض بالاكراه، تلتقطها نفسية إجتماعية تستنبت في مناخ الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة فإن إمبريالية الثقافة تكرس واقع التخلف الاقتصادي وهياكله الاجتماعية وترعاها.

تلك هي عناصر الوعي الاجتماعي في عالمنا العربي وعوامل أزمته. وهي كما يتبين حياة ثقافية ذات منشأ إجتماعي تاريخي وتثير مشاكل تستثير بدورها المعالجات والحلول، هي مقومات وقضايا الثقافة الوطنية، ثقافة التنمية الاجتماعية المادية والروحية، فالتنمية الثقافية توأم التنمية الاقتصادية تتفاعل معها وتحمل مشاكلها وأزماتها وتطرح قضاياها وحلولها. والحاضر لا يستطيع الافلات من الماضي فهو استمرار له وتناقض جدلي مع ظواهره ومشاكله والمستقبل استمرار للحاضر، ومستقبل الثقافة العربية استمرار لحاضرها من حيث الشكل وإنعكاس لواقع المستقبل من حيث الجوهر.

٣ـ ثقافة التنمية الوطنية

يندمج الصراع ضد الغزو الاقتصادي والسياسي للإمبريالية بالصراع ضد ثقافتها، تلك الثقافة الموجهة، بهدف إنجاح مشاريع الغزو المادي للإمبريالية، ولا يتم هذا الصراع حرباً كلامية مجردة، فالثقافة في نهاية الأمر تتجسد مواقف عملية وعادات سلوكية تكتسب من خلال الممارسة الحياتية وأهم جوانبها ممارسة العمل والحياة اليومية، فالصراع ضد أمبريالية الثقافية، عندما يراد له أن يحقق أهدافه الوطنية في صياغة وعي وطني وقومي يحقق سيطرة الإنسان على واقعه الاجتماعي والطبيعي، يتجلى صراع الحقيقة ضد نظام الأوهام الامبريالية لتبرير هيمنتها وسياستها اللصوصية النهاية، وصراعاً لترسيخ إنسانية الإنسان ضد عوامل التخريب الأخلاقي والفكري وتسميم الأفكار وتشويه الوقائع، إنه صراع الثقافة الإنسانية المعادي للإنسان ضمن الظروف الخاصة المتميزة لعالمنا العربي.

قد لا تحمل ثقافة التحرر الوطني مضموناً إيديولوجياً متبلوراً، ولكن إيديولوجيا الطبقة العاملة تشكل رافداً معيناً، من حيث النظرات الاجتماعية والقيم الاجتماعية والمثل، من روافد الثقافة الوطنية، فهذه الايديولوجيا الثورية ديموقراطية في جوهرها طالما أنها تتوجه لإنهاض الجماهير ودفعها إلى الحياة الاجتماعية وتحرك طاقاتها وتحشد قواها، وطالما أنها تحمل حلاً لإشكاليات العمليات الاجتماعية وتحلل عواملها وعناصرها وتكشف عن ديناميتها.

فالثقافة الوطنية في جوهرها إنسانية وديموقراطية وهي تقدمية بالحتم والضرورة، هي منحازة إلى الإنسان ضد أعداء الإنسان، مع التقدم ضد التخلف، مع الديموقراطية ضد الاستبداد، والمثقف في البلدان النامية، التي لم يكتمل فيها الغزو الطبقي الاجتماعي، قد لا يلتزم بموقف طبقي متميز، إلا أن نظراته وتقييماته للظواهر والقضايا ينتظمها خيط مصلحة إجتماعية: إما مع الجماهير أو ضد الجماهير وتجاهل لقضاياها، فنشاطه الثقافي سياسي من حيث المضمون والجوهر، ينشغل بالتحليل والتنبؤ لإدراك توجه العمليات الاجتماعية وتفهم ديناميتها، ورغم الخصائص النوعية لعمل السياسي والمثقف إلا أنهما يتداخلان ويتصارعان، وفي كلتا الحالتين تسود بينهما علاقة تفاعل، علاقة تأثر وتأثير.

الثقافة ومهمات المرحلة

في البلدان النامية تتخذ المجتمعات حالة إنتقالية. وفي مجال الاقتصاد لا تستقر التمايزات الطبقية فتتخذ النشاطات السياسية والثقافية دوراً أكثر دينامية وفاعلية من النشاط الاقتصادي. وإزاء عدم

التبلور من حيث الانتماء الطبقي يشكل المثقفون فئة متكاملة نسبياً ذات أسلحة خاصة مميزة في معارك الفرز الاجتماعي والصراع الاجتماعي ولها سبل علاقاتها الاجتماعية متعددة الأوجه مع قوى المجتمع الانتقالي الأخرى. ومن الناحية التاريخية طرأ التحول والتبدل في مواقف المثقفين بالموازاة مع سيرورة الحركة القومية المناهضة للسيطرة الكولونيالية الأجنبية.

فقد بدأ الوعي الاجتماعي في بلداننا العربية مع بروز الكفاح القومي ضد الاضطهاد القومي المتحالف مع تخلف العصور الوسطى، وعبر سيرورة هذا الكفاح تطورت حركة الجماهير ونشطت مبادراتها وإسهاماتها في هذا الكفاح ونمت خبراتها بشأن القضايا الوطنية والظواهر الدولية وإصطفاف القوى على الصعيد الدولي بين أعداء وحلفاء.

في الوطن العربي ظهرت حركة التنوير. معركة ثقافية وسياسية ضد الاستبداد السياسي والجهل والأمية، وضد الخرافات والتزمت والتعصب الطائفي وضد التقاليد الجامدة التي اعترضت مسيرة التاريخ، لأول مرة أدخل المنورون في قاموس اللغة العربية والوعي الاجتماعي مفاهيم الشعب كمجتمع إجتماعي يسمو على الطائفية ومفاهيم الدستور والسلطة التشريعية مثلما أدخلوا مؤسسات الصحافة والإنتاج الأدبي ومؤسسات التعليم أدوات لنشر الوعي القومي وترقيته.

كان ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت أفكار الثورة الفرنسية ـ الحرية والإخاء والمساواة ـ ونظريات فلاسفتها ديدرو وفولتير ومونتسكيو وروسو وكوندورسيه تشكل محور النشاط الثقافي في أوروبا التي أكسبت الثقافة طابعاً دولياً وكسرت بمدافع سلعها الصناعية أقوى أسوار العزلة والتعصب ضد الأجانب في كل أرجاء المعمورة. لقد انتهى إلى غير رجعة الانغلاق الثقافي القومي وطابع التطور العفوي البطيء للثقافة القومية المعزولة عن الثقافات الأخرى، واكتسب التمازج والتلاقح الثقافيين تسارعاً تولده دينامية التطور في وسائل الاتصالات.

أطلت أوروبا على الشرق بجيوشها الغازية ونشاط احتكاراتها الاقتصادية وبسيمائها الثقافية الزاهية وملاحمها الوسيمة، فحار المثقفون والسياسيون القوميون بين هذه وتلك، وفسّروا التناقض بأسباب وعوامل أخلاقية وطبعت الرومانسية كلاً من النشاط السياسي القومي والثقافة القومية في تلك الفترة التي امتدت حتى الحرب العالمية الثانية. كان التحصيل الثقافي خلال هذه الفترة من نصيب أبناء الأسر الميسورة الذين تسلموا قيادة الحركة القومية بفضل استمرار عادة التعلق بالأسياد، وبعد تحقيق الاستقلال الوطني استقرت غالبية هذه الشريحة في صف السلطة، واحتلت مراكز قيادية في أجهزة الثقافة والتعليم والإدارة. وظل توجهها محكوماً بتأثرها بالثقافة البرجوازية وتقاليدها، وظل البعد الاجتماعي معدوماً في النظرات الثقافية لهذه الشريحة.

وحدث نهوض عارم في الحركات القومية للتحرر الوطني مع تحطم النظام الكولونيالي العالمي إثر الحرب العالمية الثانية وتحطم الفاشية وبروز النظام الاشتراكي على المسرح العالمي، واكتسبت الحركات القومية بعدها الاجتماعي المعبر عن مصالح الجماهير الاقتصادية ونظراتها إلى تنظيم الهيكل الاجتماعي، المسترشدة بحاجاتها وتطلعاتها.

وتعرت حقيقة البرجوازية في الغرب في مرحلتها الراهنة، نظاماً للإحتكارات وممارساتها المقاومة للتقدم والمعارضة لكل ما حملته البرجوازية في مرحلة نهوضها الثوري ضد استبداد الاقطاع من نظرات وقيم إيجابية. لم تستطع الملامح الرسمية لدول الامبريالية أن تستر الطابع الاحتكاري المتغلغل في جميع مسام الحياة الاجتماعية والطابع المتعفن في ثقافتها وممارساتها السياسية وبخاصة على المسرح العالمي.

وبالنتيجة يثبت عجز الفكر المجرد عن حل ومعالجة مشاكل المرحلة، مشاكل التحرر والتقدم في البلدان حديثة الاستقلال، بات العقل الجدلي مدعواً لكشف الوحدة والتناقض بين الشكل والجوهر، بين العام والخاص، والضرورة والصدفة، وداخل التركيب الاجتماعي بين المصالح المتعارضة. ونشأ من الوسط الجماهيري جمهور من المثقفين استيقظ على الوعي القومي والنضالي، ويتوجه بنزعة ديموقراطية عامة إلى المساواة والعدالة وإنصاف المحرومين، منشئه الاجتماعي. إلا أن هذا الجمهور تتنازعه نفسيات إجتماعية متضاربة تولدها تطلعات فردية وعوامل ضاغطة تخلق لدى الفرد إزدواجية بين التقليد والمعاصرة وبين الوطن والدولة، بين وسط إجتماعي طبقي ونزوع ذاتي إلى تسلق السلم الاجتماعي، الالتزام بمعايير القوانين الوضعية أم بمعايير الواجب الاجتماعي وضرورة التغيير والتقدم، وقد تتحول الازدواجية إلى تمزق وشوزيفرينيا إجتماعية، تناقض بين القناعات النظرية من جهة والسلوك اليومي المحكوم بنمط الحياة والتقليد وأسلوب العمل المهيمن من جهة مضادة.

وامتلك المثقفون الديموقراطيون سمات اجتماعية نوعية منحتهم الحزم والصلابة اللذين مكناهم من حل إشكالات الازدواجية وتحمل أعباء الصراع الثقافي. فهم ألصق بالجماهير وأكثر انفتاحاً على القوانين الاجتماعية وضرورات التطور التقدمي، وهم أقرب إلى معاناة الجماهير وتحسساً لنبض الحركة المستقلة وأقدر بالنتيجة على الالتزام بطموحات الجماهير وخلق التفاعل اللازم بين منتجهم الثقافي وأشواق الجماهير وتطلعاتها، وبحكم موضوعيتهم التي اكتسبوها من خلال التصاقهم الحميم بالواقع وضروراته وعبر الانفتاح على الثقافة الإنسانية استوعب المثقفون الوطنيون الديموقراطيون منجزات الثقافة الإنسانية في العالم واستلهموا نزعاتها الديموقراطية والتقدمية وتعمقوا في تراثهم القومي فأمسكوا بالقيمة الإنسانية للديموقراطية.

تتمثل خاصية الثقافة الوطنية في النقاد إلى جوهر العلاقات الاجتماعية وإدراك التناقض الموضوعي داخل المجتمع على الصعد الاقتصادية والسياسية والثقافية وعرض اصطفاف القوى على هذه الصعد وفي المجالين المحلي والدولي. والثقافة الوطنية لا تفهم النشاط الثقافي وعظاً وإرشاداً، إنما تعبئة للنضال السياسي وحشداً للجماهير في النضال ضد أعدائها وبالوقوف ضد التحالف الامبريالي ـ الصهيوني. فعملية توليد ونشر الثقافة الوطنية على أوسع نطاق وفي العمق تتم بالتفاعل مع النشاط السياسي بمفهومه العلمي، مفهوم حركة الجماهير المستقلة ووضع الثقافة في متناول الجماهير العاملة.

فالثقافة الوطنية الديموقراطية لا تستقيم إلا بتعرية جذور المشاكل الاجتماعية داخل النظام الاجتماعي ذاته وكشف العلاقة الشرطية بين

الطرفين ـ إن ما يلحق الجماهير من أفكار وتجويع وما يفتك بها من أمراض إجتماعية ونفسية وفيزيولوجية إنما هو حصيلة نظام الهياكل الاقتصادية ـ السياسية التي تتجاوب مع مصالح أنانية ضيقة، وكل تغيير لا يحد من فهم هذه المصالح أو يجرفها مع تياره يظل مجرد إصلاحات وعمليات ترقيع وتجميل.

والثقافة الوطنية الديموقراطية تخلق التفاعل مع الجماهير مخترقة حواجز الكبت والقمع عندما يعكس منتجها الفني وفي ميدان العلوم الاجتماعية الواقع الموضوعي للحياة الاجتماعية وينفذ إلى جوهرها ويعبر عن السمات الأساس لواقع الطبقة والمجتمع والعصر بأكمله، وسواء استلهمت منتجات الثقافة الوطنية جوهر الحركة التاريخية وسماتها الأساس أو استلهمت التراث فإنها ملزمة بمجانبة التجريدية والتمعن في الظواهر بموضوعية وبالملموس، ووعي العلاقة السببية الضرورية والجوهرية المتكررة. فالأفكار الاجتماعية تتضح من خلال الممارسة الاجتماعية عن معارف وأدوات ثقافية سابقة تأتي تطويراً لها من حيث الشكل وتعكس حاجات الإنسان ومستوى خبراته العملية من حيث الجوهر والمضمون.

ولكي تنجز الثقافة الوطنية مهمتها وتؤدي وظيفتها الاجتماعية لا بد لها من الوقوف بوجه التيار المتدفق بغزارة الامبريالية الثقافية. فهذا التيار يحمل وظيفة تضليل الجماهير في البلدان النامية وتطويعها لإستراتيجية الهيمنة الامبريالية الاقتصادية والسياسية. وبهذه الوظيفة يأتي منتج إمبريالية الثقافة عنصرياً في جوهره = مركزية الحضارة الغربية، عدم الأهلية الثقافية لشعوب الشرق، عقلانية الغرب وروحانية الشرق، كما يأتي هذا المنتج تبريرياً غير موضوعي ولا علمي ـ نظام من الأوهام المفبركة وحشد هائل من التحليلات التي تغيب نشاط شعوب البلدان النامية وطموحاتها وتشهر الغرب بصورة تثير الانبهار والاحساس بالاحباط والعجز لدى شعوب العالم الثالث. إن ثقافة الامبريالية تنطلق من الاستراتيجية الكونية للإمبريالية وتقوم على مبدأ الإلحاق والتبعية وتغييب الحقيقة وبخاصة حقيقة الامبريالية الصهيونية ومنشأهما الاجتماعي الواحد وتعبيرهما عن مصالح طبقية مناهضة للسلم والتحرر الوطني والتقدم والديموقراطية في العالم كله.

إن واجب الثقافة الوطنية الديموقراطية تعرية هذا الواقع وفضحه، وفضح الزيف والادعاء في منتجات إمبريالية الثقافة المقنعة برداء الحرية وحقوق الإنسان والرسالة الحضارية للولايات المتحدة. وفي هذا المجال ينهض الكفاح الثقافي على مبدأ حق الشعب في التطور الوطني المستقل وليس على أسس إقليمية أو عرقية أو تعصب ديني أو مركزية جغرافية أو ثقافية متزمتة. فالامبريالية هي التي تزيف حقيقة حركات التحرر وتسمها بالطابع العنصري وتبرر الصراعات القومية بالعداء الأزلي والأبدي بين الأقوام والشعوب. وهي تسخّر أبحاث العلوم الاجتماعية وبخاصة علم النفس كي (تبرهن على) عنصر الشر المتأصل في طبيعة الإنسان وتروج للنظريات الاجتماعية الزائفة كالداروينية الاجتماعية ونظريات التحليل النفسي الفرويدي والبراغماتية بهدف التستر على الميول العدوانية الكائنة في الطبيعة الطبقية للإمبريالية وأن تورط أي نشاط ثقافي في العنصرية والتزمت الطائفي والتعصب القومي يصب في تيار ثقافة الامبريالية ويخدم غاياتها وتوجهاتها.

والثقافة الوطنية الديموقراطية لا تقيم تعارضاً مطلقاً بين الخصوصية القومية والعام الإنساني في الثقافة. الثقافة أولاً وقبل كل شيء منتج إنساني وحاجة روحية للإنسان ككائن إجتماعي يحفزه حنين أبدي إلى المعرفة والتقدم لبلوغ السعادة والمساواة وهي بحكم منبتها وظروف تطورها ونموها تعكس القضايا والحاجات التي تولدها ضرورات المرحلة التاريخية المعاصرة، هذه الضرورات المتماثلة لدى كل شعوب العالم، فالعام والشامل في قضايا الثقافة وعناصرها يتوحد مع الخاص لدى كل شعوب العالم، والمحكوم بالنفسية الاجتماعية المتشكلة تاريخياً في ظروف العزلة الثقافية النسبية.

تلك هي السمات العامة للثقافة الوطنية وطابعها المتميز وفقاً للمرحلة التاريخية، ونظراً لتعبيرها عن الضرورات الموضوعية للعمليات الاجتماعية وتفسيرها لديناميتها ضمن مفهوم وحدة الظاهر الاجتماعية ومشروطيتها المتبادلة في هذه المرحلة التاريخية، فإن نشاطها يتجلى في قضيتين جوهريتين تمثلان محور قضية التنمية الاجتماعية التي تتفاعل وتتكامل من خلالها التنمية الثقافية مع التنمية المادية الاقتصادية.

الثقافة وصياغة الإنسان الجديد

إن معيار الاختبار لأي نشاط ثقافي يتجلى في حصيلة هذا النشاط في صياغة المواقف الاجتماعية الجديدة المعبأة خلف قضية حل المهمات الاجتماعية والقومية وتذليل العقبات بوجه عملية التقدم الاجتماعي. فتربية الإنسان الجديد، القوة الرئيسية للتطور الاجتماعي هو المهمة المركزية للثقافة الوطنية. تطوير مواهبه وقدراته بصورة شاملة ومنسجمة وتصفية قيم العصور الوسطى المتخلفة في وعيه ومكافحة عوامل الجدب والتصحّر في حياته الروحية، تلك العوامل التي تحفزها وتنشطها ثقافة الاستهلاك الامبريالية والحرب النفسية المواكبة للحروب الاقتصادية والعسكرية.

فإذ تشكل تنمية القوى المنتجة مفتاح التنمية الاجتماعية بهدف إقامة هياكل إقتصادية تصمد بوجه الكولونيالية الجديدة، فإن الإنسان الجديد تشكل أساس القوى المنتجة الجديدة.

لقد حمل الإنسان العربي على كتفيه طوال قرون عدة ضغوط الحياة القاسية بما حفلت به من اضطهادات واستغلال ومصادرة حقوق. وبقي الإنسان عاجزاً أمام كوارث الطبيعة والحوائج الاجتماعية وظل يتطور بعفوية عبر تتالي الأجيال. تشهد على قيمة الإنسان العربي حتى قرن من الزمن المسميات التي كانت تطلق على الجماهير العاملة وأوصاف الازدراء والتحقير التي ألصقت بها، إذ لم تدخل قاموس العربية مفاهيم الشعب والجماهير ومسؤولية السلطة التشريعية والدستور والمساواة والإخاء إلا في النصف الثاني من القرن الماضي على أيدي المنوّرين العرب الذين استشار نقمتهم نهج الاستبداد والتجهيل والأمية والاستهانة بالجماهير.

شهدت القرون الوسطى إنفصاماً تاماً بين ممارسات السلطة المستبدة وقيم الحياة الاجتماعية التي رسخها الاستبداد من جهة وبين الدعوات الديمقراطية والإنسانية التي حفل بها التراث القومي العربي ـ الإسلامي في العصور الوسطى، والأمية من مخلفات القرون الوسطى خاضعة لأوهام والخرافات وسياج العزلة عن الحياة، يصعب على الأمي

استخدام آلات ومعدات صناعية في مرحلتها الأولى فكيف بصناعات مرحلة الثورة العلمية ـ التكنولوجية ومعدات الأليكترون؟

إن تطوير المعارف وإحلال الثقة بالنفس والاعتزاز بالكرامة الشخصية سمات للإنسان الجديد تتكون مع الخروج إلى الحياة العامة وممارسة السياسة من خلال إنجازات التحولات الاجتماعية التقدمية. تضاف إلى ذلك أن الصناعة الآلية تزرع لدى الفرد عادة الاستغراق في العمل التي تضفي عادات العفوية والفردية وترسخ لدى الأفراد تقليد تقصي واستكشاف الخواص الموضوعية للمواد والظاهرات وصولاً لتغييرها. فالمسار الموضوعي لتطور المعرفة من الممارسة إلى المعرفة ثم اختبار الأخيرة عن طريق الممارسة فتوسيع المعرفة وتعميقها لارتياد مجاهيل جديدة.. إن هذا المسار يقدم الدحض العملي والنظري لعقيدة العقلانية التي لا تقر إلا بالدرجة المنطقية لسيرورة المعرفة وتعتبرها مجرد تجريدات ذهنية تميز النخبة والسوبرمان، عقلية تبرير العنصرية، وكل إنسان سوى يؤدي دماغه الوظائف والإدراك الحسي والادراك المنطقي وإن كان ذلك يتم على درجات متفاوتة تنشأ بسبب تفاوت الظروف الاجتماعية التاريخية والقدرات الذهنية للفرد وليس عن عوامل بيولوجية متأصلة أو ملازمة لعرق أو عنصر بشري.

والثقافة بناء على ذلك، لا تنمو قيمها ومثلها ونظراتها عن طريق المواعظ أو التلقين أو في مزهريات منفصلة، الثقافة بنت الممارسة العملية وحصيلة النشاط الجماعي للناس وترتقي الثقافة بإرتقاء الممارسة وبالارتباط بتطور تجارب الجماهير وبمناخ الديموقراطية والحرية التي تمارس في ظله حياتها الاجتماعية.. في مناخ الديموقراطية تنتعش الثقافة الوطنية وترسي تقاليدها في شتى مجالات الإنتاج الثقافي، ويتم التفاعل الخصب بين منتجي الثقافة الوطنية والجماهير الشعبية الأمر الذي لا يمكن عنه إزدهار الثقافة الوطنية وترسيخ قيمها ومثلها في النفسية الاجتماعية وجعلها الدليل المرشد للعملية التاريخية الجارية لحركة الجماهير السياسية المستقلة من أجل السلم والتقدم والديمقراطية.

الثقافة والوحدة الوطنية والقومية

يستدعي هدف تعزيز الحركة الجماهيرية السياسية المستقلة تحقيق وحدة الجماهير الشعبية على الصعيدين الوطني والقومي، وتعترض هذه المهمة صعوبات وعقبات ناشئة عن استمرار مخلفات الماضي في الوعي والعلاقات الاجتماعية، فالوعي بطبيعته يحمل قوة استمرار تبقي على عناصره المتخلفة حتى بعد اندثار عواملها المادية داخل المجتمع، كما أن تحلل العلاقات الاجتماعية الضيقة في المجتمعات الانتقالية لا يضمن بصورة آلية تشكل علاقات جديدة تقدمية تنبت مصالح وحاجات في النفسية الاجتماعية تعانق الوطن بأكمله.. فالثقافة إنتماء بقدر ما هي موقف، ففي الأقطار العربية نمت علاقات إجتماعية جديدة وتشكلت مؤسسات سياسية وهياكل إقتصادية سحبت الفرد من تأثير العلاقات العشائرية وتقاليدها، إلا أنها تركته يهيم على قارعة التاريخ عنصراً خاملاً يتسكع بعيداً عن قوى الإنتاج ويعيش حالة ضياع تحت رحمة العمليات الاجتماعية الطاحنة، فالهجرة من الأرياف مثلاً ملأت المدن بالمتعطلين والفئات الشرسة وعناصر العالم السفلي، إنه لمثال صارخ على القوى الاجتماعية الهوجاء التي تطحن الجوانب الايجابية في الحياة الروحية القديمة في ظروف التطور العفوي وتجاهل القوانين الاجتماعية الموضوعية، مما يعرقل عمليات التنمية الاقتصادية بما يستوعب نتائج التفجر السكاني بالأرياف.

إلا أن الابقاء على تخلف الاقتصاد وبالذات استمرار النماذج الاقتصادية المعزولة عن بعضها البعض يعزز نزعات إنفصالية وانعزالية داخل البلد الواحد.. ذلك أن النماذج الاقتصادية المنفصلة والمتجازرة تستنبت في النفسية الاجتماعية إنتماء إنعزالياً وتعصباً للعشيرة أو الطائفة أو الاقليم، وبين مشاعر التعصب والعزلة علاقة من ضيق الأفق تتجلى عشائرية في أحيان معينة وظائفية في حالات أخرى وإقليمية تارة، فالتعصب بشكل عام هو ضيق أفق يقيم حواجز حول الوطن وداخل كل منطقة ومدينة وحي وقرية.

إن روح التعاون في القرية الفلاحية، نفسية عفوية تقتصر على إطار البيئة الصغيرة للفلاح وغالباً ما تفضي إلى نزاع وتنافس مع البيئة الاجتماعية المجاورة، أما أفراد النخبة الذين استأثروا في ظل وهم المساواة داخل القبيلة، بالنصيب الأوفر من الدخل الجماعي واحتكروا حق إصدار القرار فلا يتخلون عن الحنين إلى الاحتفاظ بهذين الامتيازين ويشجعون العلاقات الاجتماعية المتخلفة وروابطها في مجال الإدارة والجهاز البيروقراطي لكي يواصلوا إحكام قبضتهم على الجماهير وتعطيل حركتها المستقلة. وتظل ثابتة في النفسية الاجتماعية نزعات الغربة والانتماء القبلي أو الطائفي والريب حيال الآخرين ومحاباة الأقارب.. إن قوة استمرار التقاليد القديمة تقيم صعوبات أمام تحقيق الوحدة الوطنية والقومية، فلطرائقها الاجتماعية جذور راسخة في وعي الناس الذي لم يخضع لعملية تحول حاد وعنيف بتأثير تحولات إجتماعية عميقة.

وكما يتضح بجلاء في عالمنا العربي فإن القوى الرجعية المرتبطة بالامبريالية والحركات المشبوهة التي عملت ضد التضامن العربي مثل حركة الكتائب في لبنان والفرعونية في مصر والنزعات الانفصالية وميول الانغلاق القومي والحركات الطائفية في أكثر من بلد عربي قد استغلت ميول العزلة وضيق الأفق المتخلفة في الوعي الاجتماعي ونفخت فيها بكل طاقتها.. وفي بلدان آسيا وأفريقيا استغلت نفس هذه النزعات حركات عرقية وطائفية إما لصالح أطماع فئوية لدى القومية الكبرى للاستحواذ على مكاسب التنمية أو لصالح نزعات إنقسامية لصالح البرجوازية الكبرى المرتبطة بالامبريالية مثل الحركة من أجل دولة خالبستان التي ينظمها متطرفون من السيخ في البنجاب بهدف فصل الولاية عن الهند وخلق سابقة تحتذى لتمزيق هذه الدولة، وفي هذه الحالات نجد أصابع القوى الامبريالية ومساندتها كما نجد الهجوم المعادي للديموقراطية والتقدم.

فكل تعصب يصب الماء في طاحون الفئات الأنانية العليا ذات الأطماع أو الفئات المتحدة من أسياد الماضي، وتتمثل خطورة نزعات التعصب في كونها تقيم تناقضات أو توسع تناقضات ثانوية قائمة فتحولها إلى تناقض اجتماعي يغطي على التناقض الجذري مع الامبريالية والصهيونية، فمن الطبيعي إذن أن يشجع هذا التحالف المعادي للشعوب العربية نزعات الانعزال وينفخ في نيرانها وينشطها باستمرار.

حتى أن مثقفين قد لا يستوعبون سوى نتف من نظرات التقدم وقيمها ويتخلف في وعيهم رواسب من قيم التعصب والانعزال ويعجزون عن الانفصال التام والحازم عن تقاليد النظرات القديمة إلى الحياة والكون، فتتأثر مواقفهم بهذه الرواسب. . وقد يفقد البعض صوابه أمام الصعوبات الناشئة بفعل تعقيدات الأزمة ويعجز عن إمعان التفكير في ظروف تحضر وتطوير حركة الجماهير فيندفع في أحضان اليأس والفوضوية فيخلط الضحية بالمجرم ويلقي اللوم على الضحية بسبب ممارسة مصدرها العفوية والجهل وإنعدام الخبرة ودسائس الامبريالية.

إن تصفية نزعات الانعزال والتعصب الضيق مهمة رئيسة من المهمات الديموقراطية للتحرر الوطني والقومي، فتحقيق الوحدة الوطنية والقومية خطوة ديموقراطية تقدمية عظيمة ترتبط بعلاقة جدلية مع مهمة التنمية الاجتماعية فهي تفشل مخطط مهمة «فرق تسد» ودسائسها لتفتيتها وحدة القوى المناهضة للامبريالية والصهيونية وتحرف انتباه هذه القوى عن المهمة الرئيسية والأعداء الرئيسيين، ومن ناحية أخرى فالكيان الوطني الأكبر والأوسع يهيىء فرصة أفضل لإنجاح مهمة التنمية وتسهيل إنجازها. ذلك أن الكيان الأكبر يوفر العرض لبناء المؤسسات الانتاجية الضخمة التي تستخدم التكنولوجيا المتقدمة ذات الإنتاجية العالية، وتكون ثمرة ذلك منتجات متدنية الكلفة تصمد بوجه المنافسة. ومن جهة أخرى فالسوق المحلية الواسعة تضمن تنمية الإنتاج بغير اختناقات تسويقية أو أزمات الانكماش والكساد.

* * *

يبرهن قانون وحدة الظواهر الاجتماعية وترابطها ضمن شبكة من العلاقات السببية والشرطية أن تفرعات الظواهر الاجتماعية والروحية وعلى مستويات متباينة تبين خطأ وضرر التجريد في بحث وتحليل الظاهرة الاجتماعية وعقم محاولة عزل الثقافة عن الاتجاهات العامة للسياسة وبالذات عن قضية الحرية والديموقراطية السياسية، فالطرح الملموس لقضيته الثقافية يستدعي الاستئناس بالشروط العينية الملموسة للتنظيم الاجتماعي وعمل السلطة السياسية، وهذا ينطبق بصورة خاصة على البلدان النامية.

في هذه البلدان تمر المجتمعات بمرحلة انتقالية تتحول عبرها الهياكل الاقتصادية وتكتسب القوة والاتساع وتتمايز الانتماءات الطبقية من خلال الفرز الاجتماعي المتواصل للقوى المرتبطة بالإنتاج الصغير والملكية الصغيرة. في هذا الواقع الاجتماعي تكتسب السلطة السياسية دور العامل الحاسم والأكثر دينامية في تحديد مسار التطور وبالتالي طبيعته ومضمونه. وتتبوأ الثقافة الرسمية موقعاً متفوقاً ومتميزاً في مجال الصراع الثقافي، ذلك أنها تمتلك وسائل الاتصالات ذات التكنولوجيا العالمية لإيصال سيل متدفق غزير من المنتج الثقافي الموجه. وهناك أيضاً قدرة الرأسمال على امتلاك وسائل اتصاله الخاصة وتوظيفها في مهمة صياغة الوعي الاجتماعي وترويج الثقافة الاستهلاكية ذات الوظيفة الاجتماعية المرسومة، بات جهاز الثقافة عدلاً لجهاز الأمن من حيث الوظيفة الاجتماعية في تأمين الاستقرار لأنظمة البلدان النامية، حتى أن الثقافة تهيىء للقيم والمعايير السلوكية الملائمة لنشاط أجهزة الأمن وتمنحها قبولاً عاماً في المجتمع، فهي قد تروج مثلاً للتسامح والحوار الفكري الخصب، وقد تروج للاستبداد والاحتكار ولعبادة القوة.

وإلى جانب أجهزة الاعلام والثقافة تعمل في خدمة التربية الثقافية أجهزة التعليم العام والجامعي، في القطاعين العام والخاص، والعملية التربوية تبدأ منذ الأيام الأولى لولادة الطفل وتتواصل بلا إنقطاع مع استمرار الحياة بوظيفة موجهة محددة تتلخص في إعادة إنتاج علاقات الإنتاج لتهيئة الأجيال من حيث الخبرات العملية والقيم والمعايير السلوكية والمثل للإذعان لقانون عمل الهياكل الاقتصادية القائمة.

وبينما تقوم وظيفة الأدب والفن ـ أرقى أشكال التأثير الثقافي ـ بمهمة تغيير الإنسان بواسطة الإنسان من خلال عرض صور فنية ملموسة لأحداث الواقع وظاهراته ضمن نظام تقييمي واع، تعيد تربية المتلقي، فإن المدرسة تحفز المجرى العام للتوجه الثقافي عند الطفل وترسخ القواعد الأساس التي يقوم عليها البناء الثقافي: أسلوب التدريس هل هو تلقين أم تدريب على الاستنتاج وتربية ملكتي الاستدلال والاستقراء؟ المعلومات المدرسية أكداس من الطلاسم المنفّرة البعيدة عن التجربة والحياة أم معلومات مفيدة عن الوقائع الأساسية؟ إرهاق الذاكرة أم تنشيط وتنمية لقدرتها؟ التعامل مع التلميذ هل يتم على شكل إنزال عقوبات أم تربية للعادات السلوكية مقرونة بتربية الكرامة والاعتداد بالذات والثقة بالنفس؟ تلقي الاستنتاجات الجاهزة أم تربية الموقف النقدي؟ أمور وقضايا قد يأتي مفعولها غير بارز في الممارسة اليومية للعملية التعليمية إلا أنها في مجمل العملية تحفر عميقاً في اللاوعي والوعي وتشكل قالباً من المسلمات والبدهيات تصب فيه ثقافة الأجيال.

وهكذا إذن يبرز دور السلطة وأجهزتها الاعلامية والتعليمية والثقافية في بلورة توجه ثقافي متميز بمضمونه ورسالته. وإذا أضفنا إلى هذا الأثر الفاعل آثار البنى والهياكل الاقتصادية ـ السياسية التي ترعاها الدولة وما تستنبته في النفسية الاجتماعية من نظرات وقيم تدرك مدى القوة الدينامية التي تلعبها المؤسسات الرسمية في دعم أو محاربة الثقافة الوطنية الديموقراطية، تسهيل مهماتها في تحويل الواقع أو إعاقة هذه المهمات وتعطيلها، تنشيط الممارسة الاجتماعية للجماهير ودفعها إلى الحياة الاجتماعية والسياسية أو تكبيل الجماهير والحجر عليها.

وإذا ما وضعت العراقيل بوجه الحركة التاريخية فلا شيء بمقدوره إخماد المشاكل الاجتماعية الناشئة أو تفريغ الطاقة التي تشحنها في النفسية الاجتماعية. فتفاقم هذه المشاكل واستفحالها في ظل الممارسات الأنانية الضيقة والذهنية المغلقة لا يتوقف أو يهدأ سيما وأن أساليب الكبت والقمع تعجز عن قطع الجماهير عن أفكار العصر، أفكار الديموقراطية وحق تقرير المصير والتقدم ولا تحجب عنها المثال الملهم للحركات الشعبية التي تهز العالم القديم وتصدّع جدرانه.

٤ ـ التراث في معركة التصدي الثقافي

يستحيل بناء الثقافة الوطنية الديموقراطية دون الاحاطة التامة بالثقافة التي أبدعها التطور القومي السابق وتطور الإنسانية بأجمعه بعد دراستها دراسة نقدية، فالثقافة الوطنية الديموقراطية تطوير لمجمل ما توصلت إليه الإنسانية من معارف في ظل المجتمعات السابقة وبخاصة

تطوير القيم الديموقراطية والإنسانية في التراث والتي عكست في حينه حنين الإنسان الأزلي إلى السعادة والمساواة ونفوره الغريزي من الاستبداد والاستغلال.

فلا أحد بمقدوره إحتكار التراث وقيمه، إذ ما من فئة إجتماعية تعنى بالثقافة بمقدورها إسقاط ثمرات التجارب الإنسانية الماضية من اعتبارها، والتراث يستشار لإعطاء رؤية في الحاضر ودعم توجهاته وقضاياه وإعادة صياغة الماضي من منظور قضايا الحاضر ووفق مستوى هياكله الايديولوجية والسياسية، إن جميع القوى الفاعلة إجتماعياً والطامحة لتوجيه الأحداث المعاصرة تستنجد بالتراث وتحاوره محاورة نقدية وتتناول منه ما يدعم توجهاتها. فالتراث الفكري، وإن شكل عضوية واحدة، إلا أن عناصره ترتبط فيما بينها بعلاقة تناقض وإنسجام.

وفي كل عصر تصارعت التطلعات الإنسانية داخل المجتمع الواحد وتجلت صراعاتها أفكاراً ونظريات ورؤى بعضها يدافع عن الوضع القائم ويزكيه ويدعمه بالأسانيد الفكرية وبعضها يحمل إرادة التغيير للأفضل، وقد يحمل حنين المحرومين وأشواقهم التي لم يقبلها الواقع السياسي القائم حينذاك، فتقمعها بقوة الاستبداد.

فالنظرات إلى التراث وعناصره تتضارب بتضارب الأهداف والمهمات التاريخية المعاصرة التي ترشد نشاط القوى الاجتماعية المتصارعة في كل مجتمع.

هناك القوى المروجة لسلع الامبريالية المادية تتحمس لترويج ثقافتها كذلك، وتنكر من منطق عدميتها القومية ومصالحها التابعة أي قيمة في التراث القومي وتسقطه جملة من اعتبارها. فهي تراه عقيماً منطوياً على الروح خاوياً من القيم العقلانية التي تجاري عقلانية الحضارة البرجوازية وتقدمها العلمي والتكنولوجي.

وعلى الضد من هذه القوى ترى الاتجاهات السلفية في التراث قوالب جاهزة يمكن أن يطوع لها الحاضر ويحشر داخلها، فهي ترى في التاريخ إمتداداً في فراغ لا ينشدّ إلى واقع يتغير أو يرتبط بعوامل تغيير وتحويل وتعقد في الحياة الاجتماعية، وهي تنكر ارتباط الفكر والظواهر الاجتماعية بتاريخ أو وضع اجتماعي ملموس ومتميز، وتمتنع عن البحث الملموس في الظواهر والمشكلات المعاصرة مكتفية بتخطيط تجريدي للوضع العام وفق قوالب النصوص التراثية، وكان لهذه الطروحات دورٌ إيجابي في أوائل فترة المد الكولونيالي حيث برزت ذخيرة هوية قومية متميزة وطاقة روحية تتصدى للاحتلال والسيطرة الأجنبيتين. إلا أن عجزها جلي في إنجاز مهمات التنمية الوطنية والتصدي للنظام الكولونيالي الجديد حيث تفشل في تقديم الحلول الملموسة إثر تحليل وتشريح ملموسين للعمليات الاجتماعية.

وبسبب اقتصارها على التعميمات التجريدية فإنها تكلّس تجارب الجماهير وتلهيها عن الاحساس بالواقع والمشاكل الملموسة. كما أنها تقف في صف التخلف وتعادي التقدم وقواه على المستويين المحلي والدولي، وتهبط بالصراع القومي المشروع إلى مستوى تعصب ديني متزمت.

والاتجاه الثالث يجمع أطراف الاتجاهين السابقين تعبيراً عن توحد النهج السياسي لكليهما فيدعو إلى مزاوجة بين «مادية الغرب وروحانية الشرق»، غطاءً فكرياً لتعفن الامبريالية واحتضارها وانعكاساً للتكامل الاقتصادي بين التوجه الرأسمالي في تطور البلدان النامية ومصالح الكولونيالية الجديدة.

أما الثقافة التقدمية، فتحلل علاقة التراث بوضعه التاريخي من جهة، وتبرز علاقته بالحاضر من جهة أخرى، فتكتشف العناصر الديموقراطية والإنسانية والعقلانية في تراثنا القومي وتظهر ذلك الحافز الأبدي إلى التقدم في الفكر والحياة الاجتماعية، كسمة أصيلة في التاريخ العربي عبر مراحله. إن هذه الدراسة النقدية للتراث تبين خصب الحياة الفكرية وتنوعها في التراث العربي الإسلامي وانطوائها على نزعات طبيعية وإنسانية وعقلية ومادية أشد بروزاً مما عرفه الغرب في نفس الفترة.. وهذا برهان عملي يدحض مزاعم إمبريالية الثقافة حول العقم الثقافي للشرق وانتضاء القدرة على التفكير الفطري والعقلاني لدى الشعوب الملونة ومنها العرب.

فالدراسة الموضوعية والعلمية للتراث ـ مناقشته تاريخياً وإجتماعياً ـ تخرج بنتائج إيجابية تؤكد على مناخ الثقة بالعقل ضد التقليد، والبحث الذي لا يكل عن مثل أعلى إنساني في المستقبل لا في الماضي يفتح العقل على الجديد ومعانيه الطبيعية. فعلم الكلام الذي دخل على الحياة الفكرية العربية الإسلامية في مراحل مبكرة جاء شكلاً فكرياً من أشكال التحول النوعي لتراكمات القمة الاجتماعية على الاستبداد السياسي، إذ ساهم الفقهاء والحركات الاجتماعية الدينية من شيعة وخوارج وقدرية وجهمية ومرجئة وحلقات حسن البصري في الفصل بين الإمامة والخلافة، وكان هذا تجلياً دينياً لصراع فكري سياسي تطور إلى علم الكلام والنظر العقلي حتى في العقيدة الدينية.

وضم فكرة المعتزلة لبنات تصور جديد عقلاني للعالم يمكن معه تأسيس العلم الطبيعي وتنظيم الحياة عقلانياً وإعطاء وجود الإنسان الطبيعي الدنيوي أساساً راسخاً، وتطوير الفلسفة باتجاه إيجابي مجدد للفكر والحياة.

وتوصل إخوان الصفا إلى رؤية الوجود الموضوعي للعالم المادي وأقروا بالحركة مبدأ للوجود ملازماً له وانفتحوا بالكامل على الأديان والمذاهب كلها وعلى العلوم بأسرها دون تحفظ ودعوا إلى موقف نقدي من الدين عامة وأكدوا على قيمة العمل، الأمر الذي يتناقض مع نظرة العصر الاقطاعي، نظرة الازدراء للعمل اليدوي في الزراعة والحرفة وامتهان محترفيها. ودعا إخوان الصفا إلى تحكيم العقل وترئيسه في جماعتهم وآمنوا بقدرة العقل على استكشاف قانون السببية.

وأخضع الفارابي الحقيقة الدينية لحكم الحقيقة العقلية، ووضع الفيلسوف الرازي فلسفته على أساس تجاربه العلمية والطبية والكيماوية. وآمن ابن سينا بأزلية المادة والحركة والزمان وبأنّ العالم المادي له وجوده الموضوعي المستقل عن وعي الإنسان كما آمن بقدرة العقل البشري على معرفة الواقع واستيعاب حقائقه وظاهراته وبالحركة الكائنة في عالم الطبيعة المتحول والمتوالد ذاتياً والمتطور من البسيط إلى المركب.

وجاءت آراء ابن خلدون في تطور المجتمعات إرهاصات مبكرة لعلم

التطور الاجتماعي الحديث والذي لم يكن له أن ينشأ إلا كتطور نوعي لتراكمات العلوم الاقتصادية والسياسة الفلسفية السابقة.

آمن العقل العربي الإسلامي في تلك الفترة البعيدة باندماج الادراك الحسي مع الادراك المنطقي التجريدي في عملية المعرفة. وجاءت العلوم التجريبية لابن الهيثم والبيروني وابن سينا تجليات لهذا الربط الذي نادت به حركة العقل الإسلامي في مراحلها الأولى.

وفيما يتعلق بالمفهوم عن الإنسان، الكائن البشري المتمتع بالعقل وحرية الإرادة والقادر على إدراك واقعه الموضوعي فإن استنطاق نصوص التراث بلغة المفاهيم الايديولوجية الراهنة واستكناه دلالات النصوص وفق منظور الحاضر يؤكد بمكانة العقل وحقه في تأويل نصوص الشريعة وتوسيع مجال حركة الإنسان ومساعدته على متابعة عملية تحرره من انحطاط العالم القديم ومن تبعية العوامل الطبيعية التي تكبله بالأوهام والخرافات. فالإنسان في نظر المعتزلة كائن يستطيع التفكير العقلي وتأكيد الذات ومسؤول أخلاقياً عن تصرفاته. والعالم كما رآه المعتزلة ليس مصبوباً منذ الأزل في قوالب جامدة.. وجال الفكر المعتزلي في آفاق رحيبة وتأمل عميقاً في مسائل الطبيعة والجوهر والإنسان والروح والنفس والحياة والعلة والمعرفة الحسية والمعرفة العقلية وكذلك في السياسة.

هذا ما توضحه بجلاء الدراسات الخصبة في التراث والتي نخرت في بحره بمهارة الربان المقتدر فعادت بثروات خصبة ونفيسة. وجدت هذه الدراسات أن الجولات العلمية في العصور الوسطى قد انطلقت من مبدأ الاجتهاد، الركن الهام من أركان التشريع الإسلامي، والمستند إلى النصوص القرآنية التي ترفع مقام العقل والتفكير والتفقه والعلم وصولاً إلى اليقين. وقد حث القرآن صراحة على الاسترشاد بانعقل والمعرفة ورفع قيمة العقل لدى الإنسان وأكد على مساواة بني البشر بغض النظر عن جنسياتهم. وهو مبدأ ما زالت البشرية تمهره بالدماء الغزيرة. ولا أحد بمقدوره إنكار دعوة السنة النبوية إلى إعلاء شأن العقل والإرادة لدى بني الإنسان. إلا أن بعض السلفيين، وهم يختمون خلف هذه الدعوات يحجمون عن الانتفاع بها في الحياة العملية ولا يفتقدونها في الممارسة اليومية لحياة الجماهير الشعبية التي تجري غوايتها على التعصب والإيمان المغلق والأخذ بالتخطيطات التجريدية. إن دعوة الإسلام إلى العقل ينبغي أن تكون المرشد الدؤوب لفهم نواميس البيئة الطبيعية والاجتماعية وإدراك دينامية عملياتها الجارية وإلا فلا ضير في علم لا ينفع أهله، ولا قيمة لقناعة لا ترشد الممارسة العملية الاجتماعية.

إن مقارنة بين سيرة الخليفة الراشدي عمر الذي لم تثلم هيبته عبارة أعرابي أثناء خطبة صلاة الجمعة «لا سمعاً ولا طاعة» ولم تطعن كبرياءه عبارة أخرى» والله لو رأينا فيك إعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا» وقال للمصري «إضرب ابن الأكرمين».. إن مقارنة هذه السيرة الماجدة بسيرة ذلك الخليفة الأموي القائل «من قال لي بعد مقامي هذا إتق الله ضربت عنقه» تبين كيف طمست المثل السامية في الإسلام أمام زحف القيم الاقطاعية التي هيمنت على الحياة الاقتصادية والروحية على أيدي بني أمية. في هذه المرحلة قطعت رقاب دعاة المساواة بين المسلمين وفرضت ألقاب «العوام» و«سفلة الناس» و«الرعاع» على جماهير المنتجين وسقطت المبدئية المتماسكة أمام النفاق والتزلف والوصولية التي تترب في مناخ الاستبداد والاستئثار بثروة الأمة.

لم يكن بالامكان طوال القرون الوسطى إختراق شرنقة المعايير والقيم والنظم الاقطاعية التي تزدري المنتجين في الزراعة والحرفة وتأخذ بالمراتبية الاجتماعية واستبداد السلطة. وحتى المنتفضين على الحكام المستبدين تمثلوا بالسلطان ونظامه كمثال لحركتهم؛ واستحوذ قائد الانتفاضة لنفسه بين أتباعه على المقام المتميز في صنع القرار. وطبقاً لقانون التوافق بين مستوى تطور قوى الإنتاج والعلاقات الاجتماعية فقد قبلت كمسلمة تلك القيمة المتدنية للناس المنتجين في أدنى درجات السلم الاجتماعي.

ساد هذا الوضع في آسيا وأوروبا أزمنة الاقطاع، وعندما قاد المصلح الديني في ألمانيا القرن السادس عشر، مونتسر، ثورة الفلاحين منادياً بمثل المساواة بين بني البشر، وقف لوثر، المصلح الديني المعاصر له، ضد هذه الثورة وألب عليها القوم إلى أن تم سحقها، كان منطق الحركة التاريخية في ذلك العصر يرفض اختصار حلقات التطور التاريخي وإحلال المساواة المطلقة بين بني البشر.

وشأن مونتسر كان علي بن أبي طالب الخليفة الراشدي الذي أصر على أن يكون مال المسلمين ملكاً عاماً للمسلمين جميعاً ولا يجوز أن يستأثر خليفة أو يسخره لتدعيم سلطان ظالم.

ومع بزوغ عصر التنوير حمل المصلحون العرب في القرن الماضي على الجهل والاستبداد وحملوهما دون العلاقات الاجتماعية الاقطاعية، أوزار التخلف والضعف في ديار العرب.

نفض هؤلاء المصلحون الغبار المتراكم حول جوهر العقيدة الإسلامية واستنكر الأفغاني تغييب كل تعاليم الإسلام باستثناء طاعة أولي الأمر. وحمل الأفغاني على المتصوفة الذين لاذوا إلى الفناء في الله، مفرغين سخط نفوسهم إنطواء صوفياً، وقال فيهم «أنا لا أفهم معنى الفناء في الله» إنما الفناء يكون في خلق الله.. تعليمهم وتنبيههم إلى وسائل سعادتهم وما فيه خيرهم. وطالب الأفغاني بحكومة مسؤولة أمام مجلس نيابي إلا أنه لم يستطع تحديد طبيعة هذه المسؤولية ولا طريقة تشكيل المجلس النيابي.

وحمل محمد عبده على الحكومة الاستبدادية وطالب بتغيير سلطتها وإلزامها بالمساواة بين الرعية، وأنكر السلطة الدينية على الإسلام باستثناء سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهي سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خولها لأعلاهم يتناول بها أدناهم.

وفي كتابه طبائع الاستبداد أكد الكواكبي أن المستبد «لا يخاف العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لأنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة؛ وإنما يتلهى بها المتهوسون؛ لكن ترتعد فرائص المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية الفلسفية، والعقلية وحقوق الأمم أو سياسة المدنية وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم، المشعة للنجوم، المحرقة للرؤوس».

توجهت كوكبة المنورين إلى أفراد النخبة يحثونهم على مقارعة الاستبداد السياسي دون أن يتعرضوا للعلاقات الاجتماعية الاقطاعية التي يستند إليها الاستبداد، لم يفطنوا إلى جوهر الظلم في علاقات

الاقطاع ولم يفطنوا إلى ضحايا هذه الظلم الرازحين في أسفل هرمه الاجتماعي، وطبيعي أنهم عجزوا عن إدراك الطاقة الثورية المغيرة للواقع الكامنة في هذه الجماهير المقهورة، ولازم هذا العجز الحركة القومية للتحرر العربي طوال النصف الأول من هذا القرن، حتى دخل البعد الاجتماعي إلى الحركة القومية بعد انهيار النظام الكولونيالي العالمي وتشكل الدول الجديدة في قارتي آسيا وأفريقيا، فاقترنت الحرية بإنصاف المحرومين والمستغلين.

إن اقتران الحرية والديموقراطية والتقدم بالعدالة الاجتماعية مرحلة نوعية في تطور الفكر، مرحلة مرتبطة بتشكل الحركات الجماهيرية للكادحين والشغيلة التي استقطبت خيرة العقول للتعلم منها وتعليمها والاسترشاد فيها وإرشادها. ولأول مرة في تاريخ الفكر البشري تشكلت إيديولوجيا خاصة بالجماهير التي تعاني الاضطهاد والاستغلال توجه نظراتها وتغني قيمها وتصوغ مثالها وتنير طريق تحررها وتستنير حصيلة الخبرة الاجتماعية لحركة الجماهير من أجل التحرر والعدالة. عند هذه المرحلة لم يعد الفكر مقتصراً على الاقرار بالحقائق، إذ تحول إلى أداة تحريك وتعبئة وترشيد لقوى التغيير، قوة مادية محولة للواقع الاجتماعي وطاقة دفع قوية إذا ما تعانقت مع الجماهير وأشواقها وطموحاتها. إن تفاعل الفكر مع حركة الجماهير قوة دينامية أغنت الطرفين ودفعتهما للدور المقرر للتطور التاريخي في المرحلة المعاصرة من حياة البشرية.

إذن فالتراث الفكري القومي نهض بوظيفته في إرشاد النزوع الاجتماعي في مناهضته الاستبداد والتمرد على التقليد ورفض القوالب المتكلسة التي تسد الطريق بوجه التقدم. فاستكشف بفعل التجريب والادراك العقلي جوانب جديدة من الطبيعة والحياة الاجتماعية ورفد مسيرة التقدم التاريخي للفكر الإنساني لبضعة قرون زمنية، إلا أنه، وهو المقيد بالعلاقات الاقطاعية القائمة، وشأن بقية الظواهر الاجتماعية ظل أسير واقعه الاجتماعي.

تطور الفكر في حينه طبقاً لجدليته الخاصة كنشاط للعقل الذي يعكس الواقع وبصفته أحد ظواهر الواقع الاجتماعي المتشابكة فيما بينها بقنوات من التأثر والتأثير، وبصفته حلقة تاريخية لتطور الفكر الإنساني.

دار الآداب تقدم

مؤلفات الدكتور سهيل إدريس

في طبعة جديدة

□ **روايات**:

- **الحي اللاتيني**. الطبعة الثامنة.
- **الخندق الغميق**. الطبعة الرابعة.
- **أصابعنا التي تحترق**. الطبعة السادسة.

□ **قصص**:

- **أقاصيص أولى**. الطبعة الثالثة.
- **أقاصيص ثانية**. الطبعة الثالثة

□ **مترجمات**:

- **الطاعون**. لألبير كامو.
- **الثلج يشتعل**. لريجيس دوبريه
- **من أكون في اعتقادكم**. لروجيه غارودي
- **حزن وجمال**. كاواباتا.

□ **آفاق «الآداب»**:

- في معترك القومية والحرية. الطبعة الثانية.
- **مواقف وقضايا أدبية**. الطبعة الثانية.